

موسوعة الأمن والإستخبارات في العالم



تأليف د. صالح زهر الدين

سلف الإستخبارات الألمانية

موسوعة
الأمن والاستخبارات في العالم

موسوعة
الأمن والاستخبارات في العالم

الجزء الخامس

ملف الاستخبارات الألمانية

د. صالح زهر الدين

المركز الثقافي اللبناني

المركز الثقافي اللبناني

للطباعة والنشر والتأليف والترجمة والتوزيع

بيروت - هاتف: ٠٥/٤٦١٧٧٧ - ٠٥/٤٦١٨٨٨ - ٠٣/٧٥٣٦٦٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٣

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال
بدون إذن خطي من الناشر.

ملف الاستخبارات الألمانية

المخابرات الألمانية

ان استخبارات المانيا الغربية هي أكبر سنّاً من الدولة نفسها، التي أعلن عن قيامها عام ١٩٤٩ بعد الحرب العالمية الثانية. ذلك لأن مؤسسها الجنرال «راينهارت غيلن» (المعروف «بجاسوس العصر») هو الذي أنشأها لحساب الدولة الأميركية، وقبل أن تفكر الولايات المتحدة بتأسيس ما يسمى اليوم «وكالة المخابرات المركزية».

أما قبل الحرب العالمية الثانية، فكانت المخابرات الألمانية، في عهد الهتلريين النازيين تعرف بـ «الغستابو»، يرتعب الإلمان من هذا الاسم ويدخل الخوف الى قلوبهم من جراء سماعه، باعتباره آلة حقيقية للموت والدمار والبطش والتعذيب. ولقد خلق جهاز الغستابو عقدة نفسية عند الالمان العادي، سواء أكان نازياً أم لم يكن، حيث كان على رأس هذا الجهاز جنرال لا يعبد إلا أدولف هتلر، واسمه «هنريخ هملر»، فضلاً عن مساعدين له، لا يقلون قساوة وبطشاً ورعباً عن معلمهم.

أما الجنرال «راينهارت غيلن» فقد كان من جنرالات المانيا الأذكاء والأقوياء في عهد هتلر النازي نفسه؛ وكان يترأس مؤسسة «جيوش الشرق» (على الجبهة السوفياتية)، وهي المؤسسة الاستخبارية العسكرية العليا للجبهة كلها آنذاك.

وفي الوقت الذي أدرك فيه غيلن هزيمة الرايخ الثالث وانهيائه، كان قد قرّر الحفاظ على مؤسسة «جيوش الشرق» بأيّ ثمن. وعلى هذا الأساس، أعطى تعليماته بأن تنقسم المؤسسة الى فروع

ثلاثة؛ على أن يجمع كل فرع منها خبراء في كل الحقول. فإذا ما حدث أن قضي على فرعين من الثلاثة تحت أي ظرف كان، يبقى هنالك فرع ثالث ثابت، ومستقر، ومستمر في الوجود. وعلى كل فرع من هذه الفروع الثلاثة أن يحتفظ بجزءة كاملة من الميكرو فيلم تتضمن كل موجودات المؤسسة من وثائق ومعلومات. أما رؤساء الفروع الثلاثة، فعليهم، أن يحاولوا الإبقاء على الاتصال فيما بينهم. .

هذا، وبعد ما عبرت الجيوش السوفياتية نهر أودر (جزء من الحدود الحالية بين بولونيا والمانيا الشرقية) وصار مرتقباً وصولها الى برلين، أعطى غيلن الأمر لمؤسسته بالرحيل من «تسوسن» (على مقربة من برلين) الى بافاريا في الجنوب. وعلى الفور رحل جميع أركان وموظفي المؤسسة باتجاه الجبال البافارية. كلهم تلقوا الأمر: ممنوع الاصطدام المسلح بالعدو.

وعندما وصل رجال مؤسسة «جيوش الشرق» الى بلدة ميسباخ في بافاريا، أعطى غيلن الأمر بأن تتفرق الفروع الثلاثة، وأن يقصد كل منها المكان المقرر له للإختباء، على أن يتولى السعاة تحقيق الاتصال الدائم حسب الظروف، في ما بينها.

وعلى الأثر، ترك غيلن ورفاقه سياراتهم على الطريق وحملوا وثائقهم السرية وانطلقوا سيراً على الأقدام الى قمة الجبل، حيث يقع كوخ كبير. وفي هذا الكوخ قرّر غيلن البقاء وانتظار الأميركيين لأخذه أسيراً. وانقضى يومان ولم يحصل شيء. أما في اليوم الثالث فقد رأى غيلن بالمنظار قوة أميركية تعبر الوادي باتجاه النمسا دون أن يبدو عليها أنها مستعدة للتوقف، اذ لم تكن أمامها قوات المانية لمقاتلتها. فلم يكن من غيلن إلا أن أرسل واحداً من رجاله الى الوادي في مهمة تقضي بأن يتصرف وكأنه من أهالي المنطقة، وأن يُعلم القوات الأميركية عن وجود جنرالات إلمان هاربين ومعتصمين في أعالي الجبل. وبعد أخذ وردّ، قرّر الأميركيون إرسال قوة الى رأس الجبل؛ فلما وصلت الى المكان، أعلنت عن وجودها عبر طلقات الرشاشات، ثم فتحت

الباب ودخلت الكوخ.

وهناك كان الجنرال غيلن ورفاقه ينتظرون على أحرّ من الجمر الأسرى الأميركيين. وعلى الفور أعطوا أسماءهم كاملة مع رتبهم، مع أن هذا ليس مطلوباً من الضباط الكبار. وسار الجميع نزولاً من الجبل الى الطريق، فيما بقيت أكّداس الميكروفيلم مطمورة تحت أرض الكوخ. وفي الشهرين التاليين، كان غيلن عرضة لاستجابات كثيرة، لكن المحققين لم يكن لهم أي اهتمام خاص بالمعلومات السريّة عن «الحلفاء» السوفيات. كان همّ الأميركيين بالدرجة الأولى آنذاك ينصبّ على البحث عن كبار المسؤولين النازيين للإقتصاص منهم. ومع ذلك لم يقطع غيلن الأمل بأن يأتيه محقق أميركي يستطيع أن يقدر قيمة المعلومات الاستخباريّة التي لديه، والأرشيف الضخم النادر الوجود، عن الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة، في فلكه. وسرعان ما خرج هذا المحقق الأميركي الى الوجود في شهر حزيران/ يونيو ١٩٤٥، فكان الجنرال «وليم دونوفان» رئيس «مكتب العمليات الاستراتيجية» الأميركي في المانيا.

أمضى الجنرال دونوفان بضع ساعات مع غيلن واستمع الى آرائه حول نيّات السوفيات في فترة ما بعد الحرب، واقتنع بأنه عثر على رجل خبير محنّك وصاحب معلومات عن الاتحاد السوفياتي قلّ توفّرها عند رجل أو مؤسسة غيره. وفي الوقت نفسه وجد غيلن أن الفرصة قد سنحت للتحدّث عن الوثائق السريّة المخبأة، وعن مؤسسته التي لا تزال عميقة التوغّل في قلب الاتحاد السوفياتي.

وعلى الفور، خابر الجنرال دونوفان، البنتاغون في واشنطن بالأمر على جناح السرعة. ولم يَنْقُضْ إلا زمن قصير، حتى طار غيلن ورفاقه المساعدين الى الولايات المتحدة.

وفي البنتاغون جرت اجتماعات كثيرة بحضور كبار رجال الاستخبارات العسكريين الأميركيين. وقد تحدّث غيلن في هذه الاجتماعات بإسهاب عن

أن الوثائق التي بحوزته تثبت نية الاتحاد السوفياتي في متابعة سعيه للسيطرة على أوروبا بكاملها. وبعد ذلك تقدّم بالاقتراحات التي يؤمن العمل بها وقف هذا المخطط.

وفي اللحظة الملائمة، وبعدما شعر غيلن أنه اقنع الأميركيين بكل ما قاله لهم، عرض عليهم التعاون بين مؤسسته ومكتب العمليات الاستراتيجية الأميركي. فوافق الأميركيون فوراً.

ولكن الغرابة، أنه عندما بدأ البحث في تفاصيل التعاون وكيفية، راح الجنرال غيلن (المهزوم والمأسور) يضع شروطه (وكأنه في عز انتصاره). وقد تمحورت شروطه حول الآتي:

أولاً: تبقى مؤسسة غيلن ذات طابع الماني صرف.

ثانياً: كل رجال مؤسسته يبقون تحت أمرته هو.

ثالثاً: يحق له التعاقد مع من يشاء دون أي اعتراض.

رابعاً: التمويل المادي للمؤسسة يقع على عاتق الأميركيين.

خامساً: لا يحق لأي عضو في مؤسسته أن يجبر على القيام بأي نشاط يخالف مصلحة المانيا.

سادساً: يبقى هذا الوضع على حاله، وفق هذه الشروط، الى أن يجري تشكيل حكومة المانية، تتولّى من جانبها وضع هذه المؤسسة تحت حمايتها وبتصرفها (وهكذا كان).

والواقع أن الأميركيين (المتصرين)، برهنوا من خلال ذلك، وكأنهم هم المهزومون إزاء شروط الجنرال (المأسور)، لأنهم كانوا بحاجة ماسة اليه وإلى أمثاله، خاصة أنه كان ذا قيمة مخبرية بالغة الأهمية، كما كانت مؤسسته متكاملة العمل والخبرة والرجال وضرورية لهم. بالإضافة الى أن الأميركيين لو لم يقبلوا بذلك (أي بهذه المؤسسة القائمة والجاهزة)، لكان

عليهم أن يؤسسوا واحدة مثلها وعلى حسابهم وبملايين الدولارات.

هذا، ومما زاد الثقة الأميركية بالجنرال غيلن، أن بعض الأحداث التي حصلت عام ١٩٤٥ بالذات، جعلت الأميركيين يبدؤون التنبه الى المخططات السوفياتية (ذات البعد التوسعي)، والتي سبقتها معلومات غيلن عنها بفترة. ثم جاءت عملية هروب ضابط الاستخبارات السوفياتية «إيغور غوزنكو» الى الغرب (كندا)، وكشفه عن شبكة الاستخبارات السوفياتية المنتشرة في أميركا، فتعززت الثقة بغيلن ومؤسسته، وانتفت على أثرها شكوك كثيرة حوله.

وهكذا، بدأ الجنرال غيلن عمله في مؤسسته الجديدة، في المباني المحاطة بالأسوار لمكتب العمليات الاستراتيجية في فرانكفورت، وباندفاع أكبر مع رجاله ضد الاتحاد السوفياتي، عبر الاتصال الوثيق بعملائه السابقين في أوروبا الشرقية، في الوقت الذي كان فيه زملاؤه ورفاقه من ضباط «الغستابو» يساقون الى المحاكم والإعدام... وفي عام ١٩٥٦، انتقل غيلن ومؤسسته (التي أطلق عليها اسم الاستخبارات الاتحادية) من فرانكفورت الى بلدة «بولاخ» قرب مدينة ميونيخ، عاصمة ولاية بافاريا، وجعل من مجموعة مباني كانت سابقاً مقراً لكبار الموظفين في الحزب النازي، ومن مباني ثكنة عسكرية سابقة، مقراً عاماً للمؤسسة. وكل هذه المباني سيّجت بجدار عالٍ وبأسلاك الشائكة، بشكل فصلها نهائياً عن بقية العالم، ووضعت لها فرقة المانية مسلحة خاصة لحراستها؛ كما جهزت بآلات الكترونية حديثة وحساسة جداً.

وهكذا، غدت هذه المؤسسة، بفضل الجنرال غيلن (الذي فرض احترامه على الأميركيين فرضاً)، من أهم أجهزة التجسس بعد الحرب العالمية الثانية، والنموذج الحيّ للقادة الذين يحكمون عقولهم لخدمة المصلحة العليا لأوطانهم؛ وقد تقاعد الجنرال غيلن عام ١٩٦٨، بعد ترؤس الاستخبارات الألمانية الغربية طوال ٢٢ سنة؛ أولاً تحت اسم «مؤسسة غيلن» من ١٩٤٥ حتى ١٩٥٦، وثانياً تحت اسم «الاستخبارات الاتحادية» من سنة ١٩٥٦ حتى

موعد تقاعده. وقد طبع المؤسسة بطابعه الخاص، وجعل عملها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطوط العامة التي رسمها حولها. كما كان له فضل أساسي على مؤسسته يتمثل في أنه جعلها غير تابعة، لا لوزارة الدفاع، ولا لوزارة الداخلية، بل ترتبط بالمستشار مباشرة.

وعندما بدأ البحث عن بديل له عام ١٩٦٧، قال غيلن: «خليفتي يجب أن يكون رجل اختصاص من الطراز الأول، ويجب أن يقع الاختيار عليه وأنا لا أزال في مركزي...».

وهكذا جيء بتلميذه وصديقه الجنرال «غيرهارد فيسيل» خلفاً له. وقد كان من كبار مساعديه منذ أيام «جيوش الشرق»، حيث يعتبر صاحب خبرات واسعة في الشؤون العسكرية والاستخبارية، ومن النموذج الذي أوصى به غيلن أن يكون خليفته. وليس من المستغرب أن يكون للجنرال غيلن نفسه دور أساسي في اختياره لهذا المنصب في أيار/ مايو ١٩٦٨.

هذا، ولم يكن الجنرال فيسيل نشيطاً ضمن الاستخبارات الاتحادية فحسب، بل كان كذلك عضواً فعالاً في «مكتب بلانك» الذي تولّى تحضير إعادة تسليح ألمانيا، وضابطاً في الجيش الألماني الغربي وفي الاستخبارات العسكرية التابعة له، وعضواً في لجنة حلف الأطلسي في واشنطن.

والجدير بالذكر، أن في ألمانيا الغربية حالياً ثلاث مؤسسات تتعاطى الاستخبارات ولو على مستويات مختلفة هي:

أولاً: «الاستخبارات الاتحادية» ومهمتها التجسس في الخارج.

ثانياً: «المكتب الاتحادي لحماية الدستور» الملحق بوزارة الداخلية. تأسس في عام ١٩٥٠، وعيّن رئيساً له «الهر أوتوجون» الذي استطاع الفرار إلى لندن عام ١٩٤٤ بعد محاولة اغتيال هتلر، وقد قتل أخوه بسببها؛ فتعاون مع جهاز الدعاية العسكري البريطاني، واستنطق الأسرى من الضباط الألمان النازيين. وقد قوبل تعيينه بنوع من الاستنكار الشديد في ألمانيا. وقد استمر

في منصبه حتى عام ١٩٧١ ، عندما خطفته المخابرات السوفياتية الى المانيا الشرقية ، فخلفه في منصبه المدعي العام السابق الدكتور «شروبرز» .

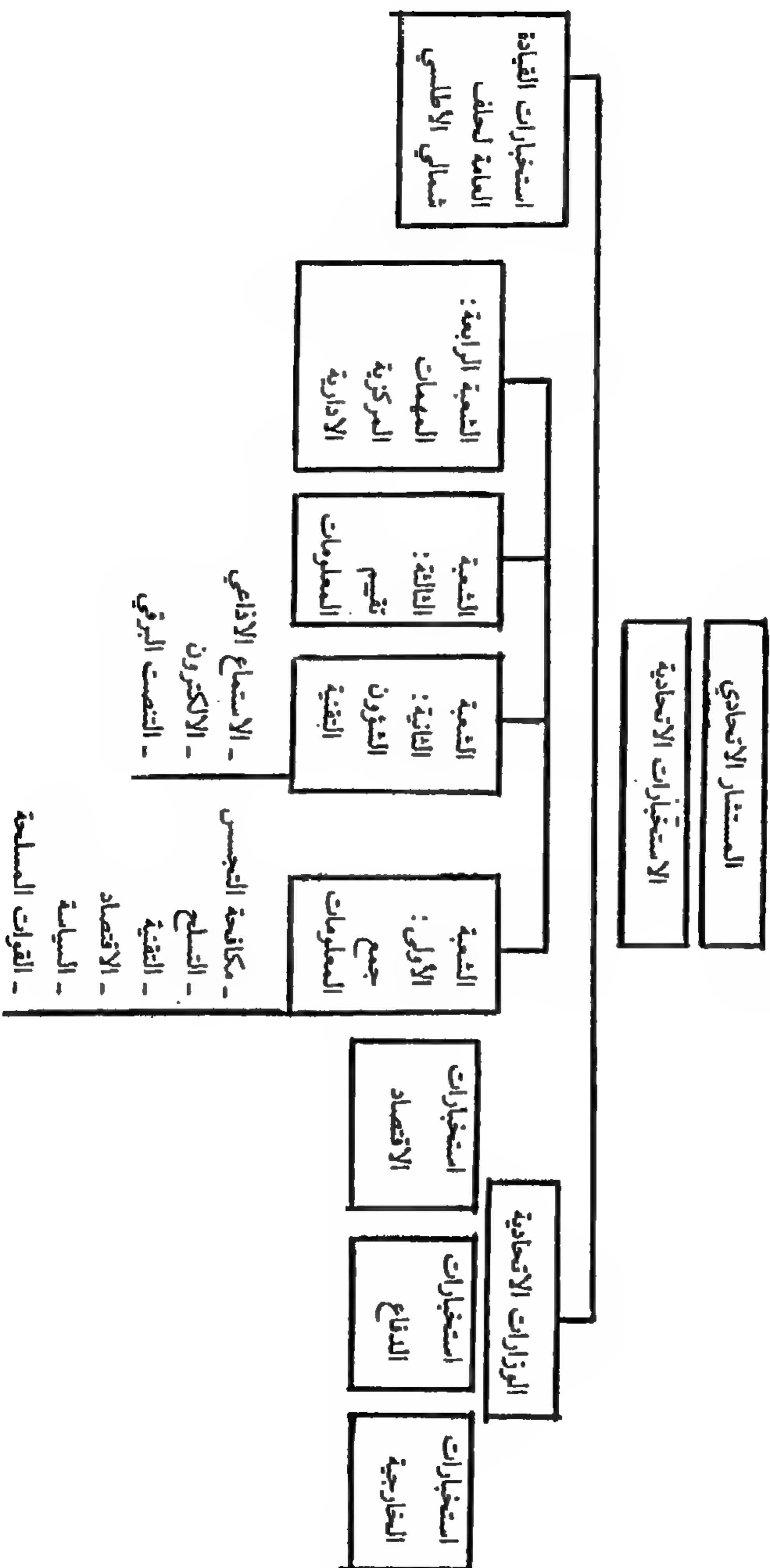
ثالثاً: الاستخبارات العسكرية الصرفة ومهمتها مراقبة الجواسيس ضمن القوات المسلحة وفي المصانع التي تنتج المعدات العسكرية . وتتبع لوزارة الدفاع .

وأخيراً ، لابد من الإشارة ، الى أن الاستخبارات الاتحادية الالمانية تلعب دوراً وثيقاً في تحالفها مع مخابرات الدول الغربية ، والأميركية منها خصوصاً ، كما مع المخابرات التركية والاسرائيلية والفورموزية وغيرها . وقد تمكنت أن تحرز نجاحات هائلة في هذا المضمار ، حيث يبقى الفضل الأكبر فيما وصلت اليه ، للجنرال راينهارت غيلن «جاسوس العصر» .

المراجع

- ١ - حافظ ابراهيم خيرالله «الاستخبارات الالمانية الغربية». (ملف عالم الاستخبارات رقم ٦). حزيران/ يونيو ١٩٧١. ص ٥ - ٥٠.
- ٢ - سعيد الجزائري، «المخابرات والعالم». الجزء الأول. مكتبة الحياة. بيروت. لا. ت. الطبعة الثانية. ص ٣٢٠ - ٣٧٥.
- ٣ - نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ص ٢٤٦.

أجهزة استخبارات ألمانيا الاتحادية (الغربية)



نازية المانيا وإحراق الرايخشتاغ

أثبتت تجارب التاريخ، وعبر مرّ العصور، على أن الذي يقود بلاده الى الهاوية، لن يتورع عن أن يزجّ بالبشرية جمعاء في أتون الموت والدماء. كما أثبتت تجارب التاريخ أيضاً صدق قول شاعر المانيا الكبير هنريش مان «أن أولئك الذين يبدأون بإحراق الكتب سوف ينتهون بإحراق البشر». والنازية الالمانية في النصف الأول من القرن العشرين هي خير دليل على ذلك؛ ومن كان جديراً بإحراق العالم كله في حرب عالمية كارثة، لم يجد صعوبة في إحراق الرايخشتاغ الالمانى ليتخذها ذريعة في القضاء على القوى الديمقراطية الالمانية قبل الانتخابات البرلمانية بأسبوع واحد عام ١٩٣٣.

فكيف تم ذلك؟ وكيف أحرق النازيون الرايخشتاغ؟.

في السابع والعشرين من شباط/فبراير سنة ١٩٣٣، وفي الساعة الحادية والعشرين وبضع دقائق اندلعت السنة النيران فوق قبة الرايخشتاغ، فملاً دوي صفارات الانذار ذلك المساء المتجمد. وحول «مسلة النصر»، وعبر بوابة براندنبورغ BRANDENBURG عكرت سيارات الاطفاء والشرطة والمغاوير سكوتون تيرغارتن TIERGARTEN، واتجه هتلر وغوبلز نحو الرايخشتاغ REICHSTAG بسرعة مئة كيلو متر في الساعة.

وبدأ مفوضو الشرطة على الفور استجواب الشاب الذي ألقى عليه القبض شبه عارٍ وملطخاً بالسخام. كان الشاب يحمل جواز سفر باسم

«مارينوس فان در لوبه» VAN DER LUBBE، المولود في الثالث عشر من كانون الثاني/يناير عام ١٩٠٩ في لايدن - هولندا.

وحتى قبل استجواب «لوبه»، كان وزير الرايخشتاغ ووزير خارجية بروسيا غورينغ GÖRING ينددان «بالجريمة الشيوعية» - على حد زعمهما - أما مساعده ر. ديلس DELS الذي صار فيما بعد رئيس «البوليس السري الحكومي» (الغستابو)، فيصف في مذكراته «لوتسيفر أمام الباب» لقاء غورينغ مع هتلر بهذه الطريقة: صاح غورينغ بصوت درامي: «هذه بداية التمرد الشيوعي، الآن سيضربون! لا ينبغي أن تضيع دقيقة واحدة». وصرخ هتلر بدوره: «سيسرح كل موظف شيوعي أينما كان. يجب أن يشنق النواب الشيوعيون الليلة. يجب أن يعتقل كل من له صلة بالشيوعيين». ودخل هتلر الرايخشتاغ لمرة واحدة وأبقى للصحفيين مهمة إدخاله تاريخ المانيا. مراسل الجريدة اللندنية «ديلي اكسبرس» (ديلمار) المصرح له من الدوائر النازية العليا، يكتب في دفتر مذكراته ما أعلنه السكرتير لفون بابن: «هذه اشارة ربانية أيها السيد المستشار الأعلى! واذا كان هذا الحريق من فعل الشيوعيين، كما أنا مقتنع، فعلينا أن نسحق بقبضة حديدية هذا الطاعون القاتل».

تعتمد غوبلز في مذكراته اتهام الشيوعيين دون انتظار نهاية تحقيقات الشرطة ورجال المطافئ التي أجريت بأسرع ما يكون، فكتب يقول:

«واضح للعيان أن الشيوعيين قد لجأوا الى الوسيلة الأخيرة لبث الاضطراب. خالقين جواً من الرعب بهدف استغلاله للاستيلاء على السلطة».

لقد اندلع حريق الرايخشتاغ تماماً في بداية الاسبوع قبل الأخير من الانتخابات، حين تبلغ الحمى السياسية ذروتها.

ذلك الاثنين كان مشعباً ببرنامج غني. فقد عقد بعد ظهر ذلك اليوم اجتماع اللجان الذي استغله هتلر وغورينغ معاً لتبرير الجرائم التي ارتكبتها

النازيون في برلين مساء يوم ٢٧ فبراير. فقد جاب هتلر بطائرته منذ العاشر من فبراير. وتحدث في عدة اجتماعات يومية، وقرر في ٢٧ فبراير أن يتحرر من واجبات ما قبل الانتخابات، وأن يستمع الى الموسيقى في جو حميم في منزل الدكتور جوزف غوبلز، حيث تستطيع ماجدة غوبلز القيام بخدمة الضيف خدمة ممتازة، وهكذا حرم هتلر متعة التلذذ بموسيقى الدكتور «أرنست خانفشتينغل»، رئيس القسم الدولي للمطبوعات في الحزب النازي، والمعروف في أوساط الصحفيين العالميين باسم «بوتسي». كان بوتسي قد أكمل الدراسة في جامعة «خارفا تسيد»، حين تصادق مع فرانكلين ديلاانو روزفلت، الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأميركية. وكان في الوقت ذاته صديقاً حميماً لغورينغ، الذي جعله في قصره اذ كان رئيساً للرايخشتاغ وقصره الى الجهة الشرقية منه. لكن الكريب جعل بوتسي POTSE طريح الفراش وارتفعت درجة حرارته الى الأربعين، الأمر الذي شجعه على عدم تلبية الدعوات التلفونية الملحة من قبل عائلة غوبلز ليتغلب على مرضه ويعزف للفوهرر FÜHRER على البيانو. وهكذا حرم هتلر داعية ثميناً يصف للعديد من أصدقائه في الخارج المفاجأة «الحقيقية» لقائدي الحزب النازي عن أخبار حريق الرايخشتاغ.

وبطريق «المصادفة» كان هتلر قد صحب معه في ذلك المساء مصوره الفوتوغرافي الشخصي «هاينريخ هوفمان» (HEINRICH HOFMAN) الذي نجح في التقاط صور «لانزعاج» النازيين البارزين من «الاعتداء الشيوعي».

وظهر في برلين «فون بابن»، الذي تكلم في العشاء الذي أقيم في مقر نادي القوميين الالمان - هيرين - بمناسبة مرور مئة عام على ميلاد المنظر البارز ومنظم الجيش الالمانى الجنرال «فون شليفن». وقد حضر العشاء الرئيس هيندنبورغ HINDENBURG، بينما لاحت من خلال النوافذ الشعلة الملتهبة فوق الرايخشتاغ. قاد فون بابن هيندنبورغ بسيارته ثم اتجها الى مقره في البناء المشتعل.

في الوقت نفسه، كان محافظ برلين يقيم عشاء يجمع بين وزير الخارجية البارون «فون نويرات» والجنرال «رونند شد» قائد منطقة برلين العسكرية مع بعض الشخصيات ذات النفوذ في أوساط من البرجوازية الألمانية التي لا تدعم سياسة الحكومة. وفي الساعة الحادية والعشرين أوضح «غيونتر غيريكه» مدير المكتب الصحفي لشؤون اليد العاملة سياسة الحكومة حول القضاء على البطالة. وبعد بضع دقائق فقط استطاع الصحفيون الوصول الى الرايخشتاغ، وانطلقوا وسط حزام من رجال الشرطة والمغاوير الذين كانوا يظفون المبنى ذات الطوابق الحجرية.

في تلك الليلة كان الاشتراكيون الديمقراطيون البرلينيون يحتفلون في قصر الرياضة بالذكرى السنوية الخمسين لوفاة كارل ماركس. تحل هذه الذكرى في الرابع عشر من مارس، لكن قيادة الاشتراكيين الديمقراطيين قررت أن تقيم الاحتفال قبل الانتخابات لاستغلاله في وقت واحد كجزء من النضال الذي يسبق الانتخابات وكتظاهرة ضد النظام. وكان ذلك الاحتفال ذريعة ممتازة للهتلريين كي يستنفروا المغاوير، وكان عشرات الألوف من الاشتراكيين الديمقراطيين المتجمهرين للاحتفال بالذكرى سيلجأون الى مهاجمة الحكومة الجديدة.

وبعد أن تمكن رجال الإطفاء من إخماد الحريق، بدا للعيان أن البناء الذي يمثل مربعاً ضلعه ٩٧ متراً وترتفع قبة الى ٧٥ متراً قد شهد حريقين منفصل أحدهما عن الآخر. الأول مبعثه المطعم الذي يقدم الخدمات للنواب، كما يقدم بعض الخدمات للجوار. وقد انبعث هذا الحريق من مواقف فرعية قليلة الاستخدام. أما الآخر، أي الرئيسي، فكان مصدره الصالة العامة وبدأ على أثر إخماد حريق المطعم. والصالة العامة التي يجتمع فيها النواب قد جهزت سلفاً بمواد مشتعلة اذ استحال خلال دقائق معدودة الى بحر من اللهب، فجّر القبة الزجاجية التي تكلل الرايخشتاغ.

وعند التأكد من أن النار سوف تخدم سريعاً في الصالة العامة، عرج

هتلر وبابن على غورينغ في وزارة الداخلية البروسية، وقرروا مع قادة الشرطة التدابير التي ستتخذ ضد الشيوعيين. وأطلق النائبان النازيان «بيرتولد كارفانه» و«كورت فراي»، وأيدهما النازي النمساوي «ستيفان كرويسر»، رواية مفادها أن النائب الشيوعي «ايرنست تورغلر» شوهد في الرايخشتاغ ظهر ذلك اليوم يرافقه «فان دير لوبه»، وسجلت الرواية في دوائر الشرطة الألمانية.

وإثر اللقاء عند غورينغ اجتمع هتلر وغوبلز في المقر المركزي لصحيفة الحزب النازي جريدة «فولكشير بيوباختر VOLKISCHER BEOBACHTER». وفي اليوم التالي حملت الجريدة بيان الحريق دون أن نخفي الابتهاج بالمصير الذي أعد للشيوعيين الألمان. وتصدر الصحيفة العنوان التالي:

«الآن حانت النهاية! سنصفّيهم جذرياً!».

وخرج البيان باستنتاج يحمل الدلالات الكثيرة:

«ارتفعت شعل الرايخشتاغ الحمراء فوق البلاد كمشعل متقد يوجه الأمة الى طريق التحرير!».

وأطلق النازيون، بعد الدقائق الأولى على الحريق، إشاعة تفيد أن الشيوعيين أشعلوا الرايخشتاغ. وأكد الاشاعة بلاغ رسمي من الاذاعة، أعد من قبل غورينغ شخصياً، وجاء فيه أن «فان در لوبه» قد اعترف بعضويته في الحزب الشيوعي الهولندي، ووجدت لديه بطاقة العضوية في الحزب. ووفق بلاغ مكتب الاعلام البروسي، الذي يشرف عليه غورينغ، تبين من تحريات الشرطة أن الحريق من عمل جماعة كبيرة وليس عملاً فردياً، اذ اكتشف البواب قرب قبة الرايخشتاغ العديد من مواقد الحريق والمشاعل والمواد المحرقة، ويلزم لنقل هذه المواد ما لا يقل عن سبعة أشخاص، كما يتطلب نقلها وإشعال الحريق ما لا يقل عن عشرة، وأن الخبرة الطويلة وكثرة الممارسات لسنوات عديدة هي وحدها التي تتيح المعرفة التامة بهذا البناء الضخم، وأن

الشرطة تشتبه بقيادة المجموعة الشيوعية في الرايخشتاغ «إرنست تورغلر» وويلهلم كونن KUNNEN. «هذا الاحراق هو أخطر عمل، حتى الآن، من أعمال إرهاب البلشفية في ألمانيا» يتابع البلاغ، مشيراً إلى خرافة آلاف الكيلو غرامات من «الأدبيات المهترئة» التي «وجدتها» الشرطة في الرابع والعشرين من فبراير أثناء تفتيش بيت الحزب «كارل ليبكنخت KARL LIEBKNECHT» مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني وهيئة تحرير «روث فانيه ROTE FAHNE» والتي تؤكد على الإرهاب الشيوعي بالطريقة البلشفية. ويورد البيان:

«يجب، في رأيهم، أن نحرق جميع الأبنية الحكومية، المتاحف، القصور وأهم المصانع، وأعطيت الأوامر بإرسال مجموعات من النساء والأطفال للقيام بأعمال إرهابية أثناء الاضطرابات والصدامات، ضد ذوي الرتب من رجال الشرطة. واكتشاف هذه المواد عرقل قيام الثورة البلشفية».

ثم أعلنت الشرطة أن إشعال الرايخشتاغ كان إشارة للحرب الأهلية، التي ينبغي أن يبدأها الشيوعيون مع الفجر. وهذا «الخطر الهائل» قد جوبه من قبل غورينغ «بأقصى الإجراءات» ومن ضمن ذلك «الاعتقال الوقائي» للنواب الشيوعيين ولأعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني. وحظر المطبوعات الشيوعية لأربعة أسابيع. وبما أن «فان در لوبه» قد اعترف بصلاته بالمطبوعات الاشتراكية الديمقراطية للحزب الاشتراكي الألماني الديمقراطي فقد أوقفت لمدة أسبوعين.

لقد حاولت حكومة هتلر بهذه البلاغات تبرير الضربة الموجهة إلى الحزب الشيوعي والحركة العمالية، والتي تم إعدادها منذ بداية شهر شباط. ووفقاً للوائح معدة مسبقاً، وبأوامر معدة مسبقاً بالإعتقال، بدأ المغاوير المستنفرون قبل الحريق بساعات، مطاردة حقيقية للمطلوبين الشيوعيين، والديمقراطيين. وفي بعض الحالات مضت مجموعات المغاوير لتنفيذ المهمات الملقاة على عاتقها في الوقت الذي كانت فيه سيارات الاطفاء تعمل

على اخماد الحريق. وحتى الصباح تم اعتقال آلاف من الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين والمثقفين التقدميين غير الحزبيين الذين وضعوا على قوائم الهتلريين السوداء. ولكي تتم العملية على النطاق المناسب استخدم النازيون في برلين أكثر من ثلاثين ألفاً من المغاوير ورجال الـ «أس». وأكثر من مليون شخص في ألمانيا بأسرها.

ولكي تستعر هستيريا العداء للشيوعية والسوفيات أكثر فأكثر، استخدمت المطبوعات النازية أكثر الأفكار غرابة: «حارق الرايخشتاغ» «فان در لوبه» متدرب في روسيا» ذلك ما أعلنته «لوكالا تسايغر» البرلينية بعد لقاءها مع شرطة أمستردام، التي لم تصدر بياناً بهذا الشأن كما ذكر جورجي ديمتروف عام ١٩٣٤. ولغاية استفزازية واضحة، فتشت شرطة غورينغ مقر الشركة السوفياتية للتجارة بالمنتجات النفطية «ديروب D.I.R.O.P».

لم يكن إحراق الرايخشتاغ من قبل النازيين مفاجأة تامة لقيادة الحزب الشيوعي الألماني. فبعد أن طرح الاشتراكيون الديمقراطيون اقتراحاً بالتعاون المتبادل في النشاطات مع الشيوعيين، طرحت دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني في ٧ فبراير مسألة اتباع نهج للنشاط في الظروف الجديدة ولحماية الكوادر من ضربات الدكتاتورية. وتوجه الحزب للحفاظ على الهدوء وتعزية مخططات الهتلريين الاستفزازية. لكن ضحايا عديدة وقعت بسبب معركة ما قبل الانتخابات على الرغم من الوضع شبه السري ونظراً للإجراءات التي اتخذها النازيون.

ومنذ ٢٨ شباط/فبراير باتت الاعتقالات والارهاب سياسة رسمية. فتم المداهمات صباحاً وبعد الظهر وتعدّد جلسات اللجنة باستمرار تحت إمرة الرئيس هيندنبورغ نفسه. وقد أجاب غورينغ عن سؤال: لماذا أعد الشيوعيون الاعتداء على الرايخشتاغ قائلاً: «ان موسكو هددت الشيوعيين بأنها ستقطع المساعدات عنهم إن لم يفعلوا شيئاً ينسف الانتخابات».

وقد وقّع هيندنبورغ «مرسوم الدفاع عن الشعب والرايخ» الذي قدّمه له هتلر. فألغيت مواد عديدة من دستور فايمار WEIMER. وتم تقليص الحريات البرجوازية الديمقراطية. وتلقت السلطة قراراً بالحد من الحريات الشخصية وحق إبداء الرأي بحرية، بما فيها حرية المطبوعات، وحق الاجتماع والتنظيم، وأن تلغى حرية المراسلات والمكالمات الهاتفية وحرمة المساكن، وأن تصدر المطبوعات وتوضع اليد على الملكيات. وقد نفذ هذا المرسوم في ٢٩ آذار/مارس ١٩٣٣ مع مرسوم آخر يحكم بالموت على كل من يعمل على «تبديل السلطة».

كان هتلر وغورينغ يعملان بحرية تامة. واتسعت أمامهما فرصة السيطرة الكاملة على ألمانيا، حتى كان نتيجة ذلك إشعال حرب عالمية ثانية كلفت البشرية الملايين من الضحايا والخسائر.

هذا وقد أثبتت تجارب الفاشية في إيطاليا وألمانيا أن مرحلة هذا الحكم هي الأكثر بربرية في تاريخ الجنس البشري حيث تفلت الأفكار الشوفينية العرقية أو الطائفية أو العنصرية من عقالها.

والفاشية ليست قدر الشعوب، وانتصار الديمقراطية على الفاشية حتمية تاريخية لا بد منها، وقد أثبتت صحتها عبر ممارسة النضال الدؤوب ضد كل أشكال القهر والتسلط والفاشية.

المرجع

- ١ - انظر: ميلن سيمكوف «ديمتروف ومحاكمة لايبزغ». ترجمة ميخائيل عيد. راجعه وقدم له د. مسعود ضاهر. دار ابن خلدون. بيروت. مايو ١٩٨٢. ص ١٠ - ٢٤.

التحالف النازي - الصهيوني من المهد الى اللحد ١٩٣٣ - ١٩٤٤

يخطيء الكثيرون من الناس عندما يعتقدون ويصدقون بأن الصهيونية هي العدو اللدود للنازية. وليس غير التاريخ والوثائق التاريخية هي التي تكشف زيف هذه المزاعم والادعاءات بين الوحش النازي والطاعون الأسود الصهيوني، وتظهر بعدها هاتان الحركتان على حقيقتهما، باعتبارهما وجهان لعملة واحدة. هذا ويحفظ الخبراء من «مركز الوثائق الاميركي» وراء أسوار مجهزة بأسلاك يمر بها تيار كهربائي عالي الجهد، ملفات خاصة بالجهاز النازي وأدلة ثبوتية مكتوبة تتحدث عن جرائمه. ولكن هناك أشخاصاً لا يجديهم ذكر تفاصيل أزمنة الحرب العالمية الثانية، وهؤلاء هم الصهاينة. والدليل على ذلك أنه من المفارقات الغريبة أن «اسرائيل» لا تحتفل رسمياً بعيد الانتصار على الفاشية، رغم مزاعمهم أن اليهود كانوا من الذين عانوا أكثر من سواهم ويلات الفاشية أبان هذه الحرب. ولهذه الظاهرة أسبابها وأبعادها. وهي أن أيدي زعماء الصهيونية وملهميها الروحيين، الذين تواطأوا مع النازيين الألمان، ملطخة بدماء الألوف من اليهود.

فما هي أسرار هذا التحالف؟ وكيف كانت مراحلها؟

في نهاية العام ١٩٨٤، عقدت اللجنة السوفياتية لمكافحة الصهيونية في موسكو مؤتمراً صحفياً، تكلم فيه رئيس اللجنة الفريق «دافيد دراغونسكي» ونائبه «مارك كرويكين» بمناسبة «أربعينية الانتصار على الفاشية»، وعرضوا خلاله عدداً من الوثائق التي ترتدي طابع السرية المطلقة التي عثر عليها في محفوظات جهاز المخابرات الألمانية «الغستابو»، والتي استولى عليها الجيش

السوفياتي، وتكشف هذه الوثائق علاقة الهتلريين النازيين «ببولكيس» المفوض في عصابة «الهاغانا» الصهيونية، مؤكدة «أن برنامج الصهيونية القومي» المتعصب يشكل أساساً كافياً لتعاون المانيا مع منظمة «الهاغانا». كما تثبت من ناحية أخرى أن تحالف الصهيونية مع النازية لم يكن ظاهرة تكتيكية، ولم يكن وليد الصدفة أبداً. بل أن هذه العلاقة كانت تحالفاً استراتيجياً طبقياً. وقد أصبحت الصهيونية اليوم وارثاً روحياً للنازية، وتنطلق من الفكرة النازية ذاتها، وهي فكرة التفرد القومي، وتلجأ في ممارساتها العملية الى أساليب الارهاب والعنف والإبادة العنصرية المباشرة اياها التي استخدمتها الفاشية من قبل.

ففي السنة ١٩٣٣، وكان هتلر قد وصل الى الحكم، نشط الامبرياليون الالمان بشدة سياستهم في الشرق الأوسط. . ومما له دلالة أن الدور الحاسم في إعداد خطط التوسع الالمانى الجديدة في البلدان الاسلامية عاد الى كبريات المؤسسات ذاتها التي رسمت سياسة الامبراطورية الالمانية في عهد الامبراطور إزاء الشرق الأوسط، أي الى الـ «دويتشي بنك» الذي كان يمول ويبنى سكة حديد بغداد، «وكونسورسيوم كروب» الذي سلّح الجيش التركي في ما مضى. وأخيراً أكبر احتكارة تعدينية وكيميائية في الرور. واستغل رجال المال والدبلوماسيون ورجال الاستخبارات الالمان أقصى استغلال كره المسلمين للمستعمرين البريطانيين، فحاولوا في أواسط الثلاثينات أن يوسعوا نفوذهم في تركيا والعراق والعربية السعودية وايران وأفغانستان. .

وأسهم الامبرياليون الالمان، سعيّاً منهم لتثبيت أقدامهم في بلدان الشرق الأوسط، في تأزيم العلاقات بين البلدان العربية وبريطانيا بشتى السبل. وتدل وثائق الدبلوماسية الالمانية على أنها استغلت القضية الفلسطينية وسعي الشعب العربي للحيلولة دون الاستعمار الصهيوني لفلسطين ولا سيما القدس، أشد الاستغلال عشية الحرب العالمية الثانية، لهذا الغرض. ولكن هذه الوثائق لا تلقي الضوء على ظرف خارق الاهمية لفضح استراتيجية

وتكتيك الفاشيين الالمان في الشرق الاسلامي هو أن الهتلريين دعموا سرّاً، منذ الأيام الأولى تقريباً لوصولهم الى الحكم حتى بداية الحرب العالمية الثانية ضمناً، خطط الصهاينة الرامية الى انشاء دولة يهودية في فلسطين.

فقد وقعت بين بنك الدولة في المانيا «ريخسبنك» والوكالة اليهودية في السنة ١٩٣٣، اتفاقية سرية اسميت بالكلمة العبرية القديمة «خافارا» (أي الرفقة التجارية). وبموجب هذه الاتفاقية، نال اليهود الميسورين الذين هاجروا من المانيا الى فلسطين، على سبيل التعويض عن ممتلكاتهم التي صادرها النازيون، نسبة مئوية معينة من ثمن البضائع الالمانية المبيعة في فلسطين بواسطة «الوكالة اليهودية». وتوصل في الوقت ذاته الى اتفاقية أخرى في شأن العون غير العلني في انتقال المهاجرين اليهود من المانيا الى فلسطين. وبما أن السلطات النازية لم تكن ترغب في تأزيم علاقاتها مع البلدان الاسلامية، فقد كانت تحول رسمياً دون هجرة اليهود الى فلسطين. وكان المهاجرون اليهود غالباً ما يحصلون على جوازات سفر بحجة الذهاب الى بلدان أميركا اللاتينية. وكانوا يغادرون المانيا على متن سفن متجهة الى البرازيل أو الى الأرجنتين. ولكن كثيراً من المهاجرين كانوا ينتقلون بعلم الربابنة الالمان، في مرافئ جزر أزور، الى بواخر متجهة الى فلسطين. وقد أزم النازيون الالمان بزيادتهم عدد المهاجرين اليهود، الوضع في فلسطين، وكان هؤلاء يساعدون في بيع البضائع الالمانية بموجب اتفاقية «خافارا» مساعدة فعالة، ويودعون الأموال المتوافرة في مختلف البنوك والمؤسسات الصهيونية التي كانت تنتزع الأراضي من الشيوخ العرب لبناء الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية، وتسهم بالتالي في حرمان فلاحي فلسطين من الأراضي باستمرار.

واستطاعت الوكالة اليهودية وغيرها من المنظمات الصهيونية في فلسطين في غضون السنوات الست من سريان مفعول اتفاقية «خافارا»، أن تنقل من المانيا رأسماً يهودياً كان ضخماً في ذلك الحين يقدر بـ ١٣٩ مليون مارك.

وقد ورد في اتفاقية «خافارا» بند سرّي جداً كانت القيادة النازية توافق بموجبه على تسليم الصهاينة سراً الأسلحة الرماذية والقنابل اليدوية والرشاشات وغير ذلك من الأسلحة من المستودعات التي استولى عليها الهتلريون في العام ١٩٣٨ في النمسا ومنطقة السوديت التشيكوسلوفاكية، الأمر الذي أتاح تسليح الجيش الصهيوني السري من «هاغانا» وفصائل «أرغون تسفاي ليومي» و«ليحي» الارهابية التي ترأسها مناحيم بيغن واسحق شامير فيما بعد. وفي النتيجة لقي ألوف الفلسطينيين مصرعهم على أيدي الصهاينة الذين سلّحهم هتلر وهملروشاخت. وأسهم ذلك كله في توطيد مواقع الصهاينة وفي اشتداد تعقّد الوضع في فلسطين. إن التواطؤ النازي - الصهيوني كان نموذجاً للاتفاقية التي عقدت بين المستشار الألماني «اديناور» وبن غوريون في شأن التعويضات، التي أسهمت بقدر لا يستهان به في تعزيز قدرة إسرائيل العسكرية في الخمسينات والستينات. ولم تكن «خافارا» سوى اتفاقية من اتفاقيات عديدة بين النازيين والصهاينة. ففور وصول هتلر الى الحكم، أنشئ في أجهزة الأمن الامبراطورية الخاضعة للرايخسفوهر وهي القوات الخاصة، القسم الخاص «١١ - ١١٢» (قسم الشؤون اليهودية) برئاسة «ميلدنشتين». وقد عهد الى هذا القسم برسم «السياسة اليهودية» في دائرة هملر. وأقام «ميلدنشتين» اتصالات وثيقة مع الصهاينة، وحضر مؤتمرات المنظمة الصهيونية العالمية. وافتتحت في برلين بموجب اتفاقية سرّية بين الوكالة اليهودية والقسم «١١ - ١١٢» دائرة لشؤون المهاجرين اليهود الذين يختارون من أصلح مئات الألوف من اليهود الالمان من الناحيتين المادية والسياسية للإرسال الى فلسطين. وقد هاجر من المانيا الى فلسطين أكثر من ٦٠ ألف يهودي بين السنتين ١٩٣٣ و ١٩٣٨. ومن باب ترغيبهم قبل الرحيل، كتبت إحدى الصحف الالمانية «لم يعد بعيداً الزمن الذي تستطيع فيه فلسطين من جديد أن تستقبل أبناءها الذين تاهوا منذ أكثر من ألف سنة... فلترافقهم تمنياتنا مع بركة الدولة». وزار «ميلدنشتين» نفسه فلسطين، بناء على دعوة من المنظمات الصهيونية، حيث اطلع على الوضع الجديد ووجه الى ممثلي

الوكالة اليهودية نصائح في مسائل تتعلق بترتيب «مخيمات لإعادة التأهيل» في فلسطين يكتسب فيها المهاجرون «التمرس الصهيوني» . .

يتضح من ذلك أن الامبرياليين البريطانيين، أصحاب وعد بلفور المشؤوم والانتداب على فلسطين من جهة، والنازيين الالمان من جهة أخرى، ساعدوا المنظمة الصهيونية العالمية وسائر المنظمات الصهيونية أكبر المساعدة في نقل عشرات الألوف من اليهود الى فلسطين، وأسهموا في توطيد قاعدة المنظمات الصهيونية المحلية المادية وتزويد فصائلها شبه العسكرية وفرقها الارهابية بأحدث الأسلحة، وفي ظهور الجديد تلو الجديد من المستوطنات الصهيونية، وحرمان العرب الفلسطينيين بالجملة من أراضيهم. وأدى ذلك كله الى تفاقم الوضع في فلسطين بسرعة وحدة. ففي ابريل عام ١٩٣٦، أعلنت اللجنة العربية العليا اضراب عرب فلسطين العام. وفي النصف الثاني من عام ١٩٣٦، تحول الاضراب الى انتفاضة شعبية استخدمت القوات النظامية البريطانية وفصائل الـ «هاغانا» في قمعها. .

عقد ذلك علاقات بريطانية مع كل البلدان الاسلامية التي جرت في مختلف المجالات. . .

فإن المنظمات الصهيونية التي كانت تسعى للحصول على شحنات كبيرة من الأسلحة بادرت الى توسيع الاتصالات بألمانيا النازية. .

فقد اتصل القسم «١١ - ١١٢» بقيادة الهاغانا بواسطة مراسل مكتب الاعلام الالمانى ومدير وكالة الاستخبارات النازية. وفي فبراير ١٩٣٧، دعي أحد قادة «الهاغانا» وهو «ف. بولكيس» الى برلين. وتوصل في نهاية المفاوضات مع الرئيس الجديد للقسم «١١ - ١١٢» هاغن، والموظف المسؤول الجديد في هذا القسم «أدولف أيجمان» النازي (الذي أعدم في «اسرائيل» فيما بعد) الى اتفاق في شأن استمرار هجرة اليهود من المانيا الى فلسطين، وتزويد «الهاغانا» بالأسلحة، كما دعي هاغن وأيجمان الى زيارة فلسطين. وقد جاء في التقرير عن المفاوضات مع المندوب الصهيوني الذي

قدّمه هاغن الى رئيسه المباشر الاستاذ «فرانتس نيكس» المسؤول في القوات الخاصة ورئيس الدائرة الثانية في مصلحة الأمن الالمانية، أن «بولكيس» أعرب عن الاستعداد لتقديم الخدمات الى المانيا في شكل تسليم معلومات اذا كانت لا تناقض أهدافه السياسية. والى ذلك تعهد بمساندة مصالح السياسة الخارجية الالمانية في الشرق الأوسط مساندة نشيطة». وبما أن الصهاينة كانوا يعرفون جيداً أن اليهود الالمان الساعين لمغادرة المانيا لم يكونوا يفكرون البتة في الانتقال الى فلسطين، فقد طلب «بولكيس»، باسم «الهاغانا» العون من مصلحة الأمن الالمانية. وصاغ القسم «١١ - ١١٢» بموافقة هملمر التزاماته في هذه المسألة أمام الصهاينة على النحو التالي: «ان الجالية اليهودية في المانيا سوف تتعرض للضغط بحيث يتعهد اليهود المهاجرون من المانيا بالذهاب الى فلسطين فقط وليس الى أي بلد آخر. وتتفق هذه التدابير تماماً والمصالح الالمانية. ويقوم الغستابو بإعداد الاجراءات لتنفيذها. وفي السنة ١٩٣٨، وقد أخذت السلطات الاستعمارية البريطانية تحد من هجرة اليهود الى فلسطين لقلقها من تعاظم الحركة المعادية للأمبريالية والصهيونية في فلسطين، هذه الحركة لم تلق الدعم الواسع في البلدان العربية المجاورة فحسب، بل أيضاً في عموم العالم الاسلامي، قرّر قادة المنظمة الصهيونية العالمية أن يوطّدوا علاقتهم مع النازيين. وأبدى أسياذ المانيا الفاشية بدورهم، استعداداً منهم لحرب كبيرة، اهتماماً شديداً بتوسيع الاتصالات مع أشد المنظمات الصهيونية اغراقاً في العدوانية في فلسطين لكي يعقّدوا الوضع في هذا البلد، ويضمنوا امكانيات اضافية للنشاط التخريبي والتجسسي في الشرق الأوسط.

ولهذا تقرر في برلين، عندما أنشأ قادة «الهاغانا» في سنة ١٩٣٨ المنظمة السرية «الموساد» مكتب الهجرة «لتهجير اليهود الأوروبيين بالجملة وفي صورة غير شرعية الى فلسطين تيسير نشاط هذه المنظمة. وصارت جنيف مقر الـ «موساد» وأصبح «بولكيس» أحد قادتها، وعاد على الفور اتصالاته بقيادة القسم «١١ - ١١٢» في مصلحة أمن الامبراطورية، وافتتح في فينيا،

في ربيع عام ١٩٣٨ ، فور احتلال النازيين لها مكتب قضايا الهجرة اليهودية الخاضع لقيادة أدولف أيخمان مباشرة . وفي صيف عام ١٩٣٨ ، أنشئت في النمسا ، اثر المفاوضات بين أيخمان ورسول «الموساد» بارغيليا ، بموافقة هملر ، معسكرات خاصة بالتدريب العسكري لإعداد الشباب اليهود من سنّ الخدمة العسكرية المختارين للهجرة والخدمة لاحقاً في فصائل الهاغانا السرية لأجل النضال ضد العرب في فلسطين . وسرعان ما أنشئت معسكرات مماثلة في المانيا أيضاً . .

وأخذ ممثلو مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية في أواخر عام ١٩٤٠ ، يقيمون هم أيضاً اتصالات مع الصهاينة . وأقيمت الاتصالات هذه المرة مع ممثلي المنظمات الصهيونية اغرقاً في الرجعية والعدوانية وهي الـ «أرغون تسفاي ليومي» (المنظمة القومية العسكرية) التي انفصلت عن الـ (هاغانا) في العام ١٩٣٦ ، وأصبحت تشكياً عسكرياً تخريبياً تابعاً لـ «المنظمة الصهيونية الجديدة» التي أنشأها قبل ذلك بسنة زعيم الحركة المالية للنازية في الصهيونية «فلاديمير جابوتنسكي» الذي كان يسعى لإقامة «اسرائيل الكبرى» ، ليس في أراضي عموم فلسطين فحسب ، بل في الأردن أيضاً . .

وفي ١١ كانون الثاني /يناير ١٩٤١ ، جرى في اسطنبول لقاء بين ممثل مصلحة الاستخبارات العسكرية الملحق البحري الحربي بالسفارة الالمانية في تركيا وقادة «الأرغون تسفاي ليومي» ، وسلم هؤلاء مشروع اتفاقية مع هتلر لإرساله الى برلين . وأشار هذا المشروع الى أن الـ «أرغون» تسعى لـ «التعاون بين المانيا الجديدة والجامعة اليهودية القومية الشعبية المجددة» . وكان المقصود من هذا «التعاون» أن يسفر عن اقامة «دولة يهودية تاريخية على أساس قومي واستبدادي» . وكان قادة الـ «أرغون» يرون أن على هذه الدولة الصهيونية الجديدة أن تقيم «علاقات تعاھدية مع الرايخ الالمانى لصيانة النفوذ الالمانى في الشرق الأوسط وتعزيزه» . وعلى هذا الأساس توصل الى الاتفاقية . وقد جرى في أواخر شهر يناير ١٩٤١ في اسطنبول كذلك لقاء بين مفوض «كاناريس» اللواء البحري «مارفيتس» الذي جاء خصيصاً من

برلين، وقادة الـ «أرغون». وتخطى جدول الأعمال كثيراً اطار تبادل المعلومات. وتناول الكلام إعداد عمليات تخريبية كبيرة اقترح الصهاينة القيام بها في فلسطين. وقبل ذلك كانت الـ «أرغون» والمنظمة الشديدة التطرف وهي «فريق شتيرن» («لوخمي حيروت اسرائيل») التي أقامت هي أيضاً علاقات مع مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية قد أحرقتا الصهاريج المحملة بالبتروول، وعطلتا خطوط أنابيب البترول وهما لم تترددا في نشاطهما في تفجير الباخرة «باتريا» وعلى متنها مئات من المهاجرين اليهود في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٠ في مرفأ حيفا. وأرسل بيغن رئيس الـ «أرغون» تسفاي ليومي» و«أبراهام شتيرن رئيس الـ «لوخمي حيروت اسرائيل» (وبعد موته اسحق شامير)، الجديد تلو الجديد من الممثلين الى فرع مصلحة الاستخبارات العسكرية الالمانية في اسطنبول (الى حيث نقل مقر الـ «موساد» من جنيف) لوضع التدابير المشتركة في الشرق الأوسط وتنسيق الاجراءات لتعزيز هجرة اليهود من البلدان الأوروبية التي احتلها الهتلريون، الى فلسطين.

ومن خلال ذلك يبدو واضحاً وضوح الشمس، أن شعبنا العربي، والفلسطيني منه بشكل خاص، كان وما زال ضحية تحالف نازي صهيوني استعماري رغم كل محاولات الزيف والخداع التي تتلظى خلفها الصهيونية واسرائيل. وكما أن النازية دمّرت القرى البيلوروسية وارتكبت المجازر والمذابح المروّعة كذلك الجيش الاميركي المسؤول عن إبادة السكان الآمنين في قرية «سونغمي» الفيتنامية. وهكذا نجد أن لمذابح دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا والزرارية وسونغمي، جذوراً مشتركة هي جذور الفاشية والعنصرية وكرهية الانسان..

وكما عوقب النازيون في محكمة «نورنبرغ» فعقاب الجرائم الوحشية المرتكبة لا مفر منه. وأن محكمة «نورنبرغ» جديدة في انتظار الارهابيين الصهاينة وحلفائهم أينما كانوا...

المراجع

- ١ - ميخائيل مالك «جلاوزة النازية». مجلة «المدار» السوفياتية العدد ١٢ (٢٦٠) سنة ١٩٨٤. ص ٤٧.
- ٢ - الكسندر كراسنوف «صلة رحم مع الفاشية» مجلة «المدار» العدد ٥ (٢٦٥) سنة ١٩٨٥. (العدد الخاص بأربعينية الانتصار العظيم على الفاشية). ص ٤٤.
- ٣ - مجلة «المدار» العدد ١١ (٢٧١) سنة ١٩٨٥. ص ٤٨ - ٤٩.
- ٤ - نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية» المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٦.
- ٥ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم» الجزء الأول. دار مكتبة الحياة. بيروت. دون تاريخ.
- ٦ - جون ودافيد كيمحي «الدروب السرية» منشورات «فلسطين المحتلة» مطابع الكرمل للنشر. بيروت ١٩٨١.
- ٧ - د. علي محافظة «العلاقات الالمانية - الفلسطينية» المؤسسة العربية. بيروت.
- ٨ - د. نظام عباسي «العلاقات الصهيونية النازية وأثرها على فلسطين وحركة التحرر العربي» (١٩٣٣ - ١٩٤٥). شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع. الكويت ١٩٨٤. ص ٣٧ وما بعدها.

المخابرات تشعل نار الحرب العالمية الثانية

إن كل الحروب في التاريخ لم تكن وليدة الصدفة أبداً. وكل حرب لها أسرارها الخفية. والحرب العالمية الثانية لم تخرج عن هذا النطاق. فما هو سر هذه الحرب، ومن أشعلها؟.

عندما اجتاحت مئات الدبابات الألمانية ومن ورائها مليون ومئتي ألف جندي ألماني، وفوقهم ٢٥٠٠ طائرة رسم على أجنحتها (الصليب المعقوف). الحدود البولونية من جميع الاتجاهات، بتاريخ الأول من سبتمبر ١٩٣٩ أصيب الجيش البولوني بالذهول وتمزق إرباً إرباً بعد أن تحولت المطارات ومستودعات الذخيرة والمحروقات البولونية الى قطع من اللهب والشظايا. . بهذا الهجوم عرف العالم في حينه «الحرب الصاعقة». تلك الحرب الشاملة التي تنقض فيها القوى الضاربة من جميع الأسلحة على قوات العدو من الجو والأرض فتدمرها تدميراً كاملاً...

أما بالنسبة للجيش البولوني فقد فوجيء أية مفاجأة وهو لم يستكمل تعبئته بعد بحيث لم يستطع القيام بأية أعمال دفاعية سوى بعض الأعمال الفردية التي منيت بالفشل حين أطبقت جحافل - البانزرز - فرق الدبابات الألمانية على العاصمة فرصوفيا ثم اندفعت باتجاه الحدود الشرقية المتاخمة للإتحاد السوفياتي، وكانت أوامر هتلر تقضي باحتلال بولونيا خلال خمسة عشر يوماً. ولكن الاحتلال تم خلال عشرة أيام وأصبح نشيد «ألمانيا فوق الجميع» يعزف في شوارع جميع المدن البولونية على وقع خطوات القوات

الألمانية . . . المنتصرة .

أما في ألمانيا فقد أذيع البلاغ الحربي الأول على الشعب الألماني في نفس اللحظات التي دخلت القوات الألمانية بولونيا على الشكل التالي : «بلاغ من القيادة العسكرية! هايل هتلر! .

في هذه اللحظة . . . وللمرة الأولى في أرضنا الألمانية فتحت القوات البولونية النظامية النار علينا ونحن نجيب على النار بالمثل منذ الساعة الخامسة من هذا الصباح» . ثم كرر هتلر بالذات هذه الكذبة بعد عدة ساعات أمام المجلس النيابي «الرايخشتاغ» الذي انعقد بسرعة في قاعة (اوبرا كرول) في برلين وهو يرتدي بزته العسكرية . ثم اتبع ذلك بخطاب ناري بلهجة هستيرية حيث كان يقطع بعد كل جملة بالتصفيق المحموم الذي يرتج له المبنى الضخم، ولا سيما حين تحدّى فرنسا وانكلترا وأيضاً الرئيس الأميركي روزفلت .

عاد هتلر بعد ذلك رأساً الى مقر رئاسة الوزراء حيث كان بانتظاره مساعده الأول مارشال هرمان غورنغ مصحوباً بشخصية سويدية كبرى هي «بيرجد داهاروس» الذي كان هتلر قد كلفه سرّاً بمهمة (تسوية الجوع) في لندن، فأعلمه داهاروس برفض لندن لكل تسوية وبإخفاق مهمته بالتالي .

فاستبد الغضب بالفوهرر وأخذ يزرع أرض القاعة جيئة وذهاباً وهو منفعل . ثم وقف وصاح بالرجلين : اذا كانت انكلترا تريد الحرب فلها ما تريد . . . سوف أحاربها سنة كاملة اذا أرادت حرباً تدوم سنة . . . وإذا أرادت الحرب لستين فسوف أحاربها لستين . . . واذا استلزم الأمر فسوف أحاربها لمدة عشر سنوات .

أما الشعب الألماني فنراه على عكس زعيمه . فحين توجه موكب هتلر الى قاعة «اوبرا كرول» ذلك الصباح كان الألمان يشعرون بالوجوم الشديد، وبأن المستقبل يحمل لهم في ثنياه سرّاً مستطيراً . لذلك كانت الشوارع

خاوية يهيمن عليها صمت مستغرب في هذه المناسبة - مرور موكب هتلر - الذي كانت تحيط به الجماهير هاتفة هازجة . . . أما في ذلك اليوم فإن البرلينيّين القلائل الذين مر بهم الموكب في طريقه ظلوا جامدين أشبه بالنافرين أو المذهولين، وكأنما استيقظ الشعب فجأة من النشوة التي كان «ثماً» بها منذ ست سنوات». أو بصورة أدق منذ وصول هتلر إلى الحكم أي بالتالي منذ شرع «جوزف غوبلز» وزير الدعاية النازي يصب عليهم الأنباء المهيجة المحمومة والمضخمة . . . على أن جميع هذه الدعاية والجهود لم تقنع الشعب الألماني بضرورة الحرب بدليل ما كتبه المؤرخ الألماني (وليام شيرز) يوم ٣١ أغسطس/ آب بالذات أي في اليوم السابق للغزو الألماني لبولونيا: «إن الناس جميعاً في ألمانيا ضد الحرب وهم يعلنون ذلك بصورة مكشوفة فكيف يمكن والحالة هذه إجبار شعب على خوض حرب لم يتقبل فكرتها» . . . بيد أن هتلر يعلم أن موافقة الجماهير ليست الشيء الأساسي بالنسبة لمخططاته. فهو يحتفظ بالكثير من السهام في جعبته وأولها آلة الدعاية العملاقة الكفيلة بحمل الجماهير على اعتقاد ما يشاء لها، وقد صارع جنرالاته قائلاً: سوف تخلق لي الدعاية السبب اللازم للحرب ولن يجرؤ أحد في المستقبل على سؤال المنتصر عما إذا كان قد قال الحقيقة. وما يجب مراعاته في الحساب هو أن من يعلنون الحرب لا يهدفون إلى الحق بل إلى النصر. أما الحق فهو ملك المنتصر. . .

تمثل هذه الكلمات استراتيجية هتلر في هذه المعركة الأولى. فقد كان واثقاً من قدرته على إحراز نصر ساحق على بولونيا فلم يعد أمامه والحالة كذلك سوى العثور على سبب يبرر إعلان الحرب. وقد وجد بالفعل هذا السبب في عملياته المسماة «الأطعمة المحفوظة».

فما هو سر هذه العملية؟ .

في الواقع لم تكن الرصاصات التي أطلقها رشاش الدبابة الأولى التي اقتحمت الحدود البولونية هي الرصاصات الأولى التي أطلقت في الحرب

العالمية الثانية . بل سبقتها في الليلة المنصرمة رصاصات أخرى أطلقها رجل مخبرات .

ففيما كانت فرق البانزرز وطائرات اللوفتواف تندفع على بولونيا في ذلك الصباح الباكر، كان الرجل الذي أطلق الرصاصات الأولى يدلف الى منزله ليغط في نوم عميق يستعيز به عن الجهد الذي بذله في مهمته الليلية الناجحة دون أن يدور في خلدته أن ما قام به سيكون له نتائج وخيمة : الحرب العالمية الثانية . ودون أن يدرك أحد أنه هو الذي أطلق الرصاصات الأولى في هذه الحرب .

كان هذا الرجل هو ضابط المخبرات الالمانى الملازم «ألفريد هلمنت نوجوكس» أحد الأعوان المقربين من «رينهارت هايدريش» رئيس جهاز الأمن السري في فرق الـ S-S أي الفرق النازية الخاصة . وقد بدأت مهمته في ٥ أغسطس ١٩٣٩ حين استدعي الى المقر الرئيسي للمخابرات الالمانية في برلين حيث وجد رئيسه بانتظاره منتصباً بقامته المديدة وشعره الأشقر مرتدياً بزته الرسمية الخاصة بفرق الـ S-S الذي بادره بقوله : أنت الرجل الذي يلزمنا في هذه المهمة . وأخذ يشرح له المهمة التي سميت «الأطعمة المحفوظة» بالشفرة . ولم ينس أن يؤكد له أن هتلر نفسه قرر هذه العملية .

كانت العملية تقضي بأن يقوم نوجوكس بهجوم مفتعل على محطة «اذاعة غليوتيز» الالمانية من الحدود البولونية بصورة يكفل معها حصول القيادة الالمانية على البرهان الكافي على أن هذا الهجوم حدث بفعل من القوات البولونية . . . واختتم هايدريش حديثه الى نوجوكس بالتعليمات التالية :

ستذهب لمقابلة «هايتريغ مولر» رئيس المخبرات الألمانية (الغستابو) الذي سيسلمك سجيناً وثياباً عسكرية بولونية . وسيكون هذا السجين ضحية «الاعتداء» الذي ستركه القوة المهاجمة صريعاً خلفها لدى انسحابها . من البديهي أن احتمال الاخفاق في هذه المهمة يعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة . . .

لم يدهش نوجوكس لطبيعة المهمة . فقد نفذ هو شخصياً ما يفوقها غرابة حين أرسل الى سلوفاكيا وأخذ يلقي المتفجرات وافتعال الاعتداءات ، وذلك قبيل غزو المانيا لتشيكوسلوفاكيا .

بالعكس فقد وجد أن مهمته هذه أسهل من ذهابه الى سلوفاكيا وتعريض نفسه للخطر هناك . كل ما يطلب منه مهاجمة محطة اذاعة المانية وضمن الأراضي الالمانية واحتلالها لفترة وجيزة ، ومن ثم اذاعة بيان يهين فيه المانيا ويتوعدها . وستكون جميع الاذاعات الالمانية مفتوحة لتلقي هذا البيان وبثه في المانيا لتهييج الرأي العام الالمانى . ولكن نوجوكس دهش في اليوم التالي للعملية حين علم باندلاع الحرب .

أما هتلر فقد حدد أول شهر سبتمبر ١٩٣٩ موعداً للهجوم على بولونيا وأسر بذلك للجنرال «كايتل» وكلف الأميرال كاناريس رئيس إدارة مخابرات الجيش الالمانى بالاستعلام عن احتمال دخول فرنسا وبريطانيا الحرب الى جانب بولونيا . وعندما أبلغه الأميرال كاناريس أن لندن مصممة على حماية بولونيا لم يصدق ذلك ، وظل معتماً الاقدام على مغامرته . بيد أنه كان ينقصه اللمسة الأخيرة والأساسية في مخططة هذا وهي الحصول على «السبب اللازم» الذي يستحيل فيه عليه الرجوع الى الوراء ، وأنه بالتالي سيقامر بمصيره ومصير المانيا . وهكذا قرأه أخيراً على عملية «الأطعمة المحفوظة» وصدرت أوامره الى مساعديه الذين شرعوا في البحث عن الرجل القادر على تنفيذ هذه العملية . وكان نوجوكس الرجل المنشود . . .

كان هتلر مدركاً كل الادراك ما هو مقدم عليه عندما اتخذ قراره شخصياً بشأن عملية «الأطعمة المحفوظة» . فهو يعلم أنه يخاطر بدخول الطريق الذي يستحيل فيه عليه الرجوع الى الوراء . وأنه بالتالي سيقامر بمصيره ومصير المانيا ومصير العالم أجمع . فلم يثنه ذلك عن عزيمته وقرر المضي في لعبته حتى النهاية . لذلك لم تصدق شعوب العالم أذنيها وهي تستمع طيلة شهر أغسطس/آب ١٩٣٩ الى تصريحات هتلر تنادي بالسلام والوثام ورغبة شعب

ألمانيا في تجنب الخلافات مع جيرانه طالباً منهم حسن الجوار والصداقة والعلاقات الودية. وكان هتلر في أوج خداعه للعالم عندما رفع غصن الزيتون فجأة، ولم يعلم أحد أنه يعد في الخفاء لضربته الكبرى. وعندما قال هايدريش الى نوجوكس أن احتمال الاخفاق في هذه المهمة يعتبر خارج نطاق البحث بصورة مطلقة... كان يعني بذلك الاعدام الفوري لنوجوكس ورفاقه في حالة الاخفاق.

لذلك انصرف نوجوكس الى دراسة مهمته دراسة دقيقة مستعيناً بالخرائط الجوية لمنطقة الحدود.. كما سلمه كاناريس الملابس العسكرية والأسلحة البولونية، وخصص له صالة فسيحة في أحد المعسكرات لتدريب رجاله الستة الذين اختيروا بدقة لهذه المهمة.

بعد اتمام الدراسات والتدريب غادر نوجوكس برلين مع رجاله كمسافرين عاديين واتجهوا الى بلدة «غليوتيز» حيث حلوا في أحد فنادقها، وسجلوا أسماءهم مهندسين مما يبرر انصرافهم الى دراسة الأراضي المجاورة للبلدة ومنها الأراضي المحيطة بمحطة الاذاعة طيلة عدة أيام. ثم استدعي نوجوكس الى مدينة «أوبلن» في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس لمقابلة «هايتريغ مولر» رئيس الغستابو، الذي أبلغه أن الخطة قد توسعت مجدداً وأنها أصبحت تقضي بتدبير عدد من حوادث الحدود؛ وأنه أحضر بالتالي عشرة من السجناء العاديين المحكوم عليهم بجرائم مختلفة؛ وسيقوم أحد الأطباء التابعين للمخابرات بحقنهم بمادة مخدرة ثم تستبدل ثيابهم بثياب عسكرية بولونية وتوضع في أيديهم أسلحة بولونية تمهيداً لإطلاق النار عليهم في منطقة الحدود، حيث سترك جثثهم كشواهد على العدوان البولوني المزعوم حين ينهال الصحفيون على المنطقة الحدودية في الأيام التالية لتغطية هذه الأحداث.

وعاد نوجوكس الى «غليوتيز» ونفذ القسم الأول من مهمة الحدود وأطلقت النار على السجناء (الجنود البولونيين) وحضر الصحفيون وتوترت

الأحوال على الحدود حتى ظهر ٣١ / ٨ / ١٩٣٩ عندما استلم نوجوكس البرقية الآتية : «اتصل بمولر لأجل الأطعمة المحفوظة». وقد اتصل بمولر فعلاً وأعلمه أنه مستعد للتنفيذ. ثم توجه الى غابة «رايتبور» الملاصقة للحدود حيث ارتدى الألبسة العسكرية البولونية هو ورجاله. وفي الساعة السابعة والنصف مساء اقتحم نوجوكس محطة الاذاعة التي لم يكن فيها سوى فنيين يشرفون على الأجهزة الفنية، وأطلق الرصاصات الأولى فاستسلم الفنيون فوراً. ثم توجه الى ميكروفون الاذاعة وأمر أحد الفنيين ببدء الارسال ثم ألقى خطاباً جامحاً هاجم فيه المانيا وكال لها الشتائم والتهديدات والاهانات الجارحة. وكان هذا الخطاب معداً سلفاً في إدارة المخابرات الالمانية، وأطلق بعد ذلك مع رجاله عدة طلقات على البناء ثم اختفوا. وقد دام هذا الهجوم مع إذاعة الخطاب دقائق معدودة. وأمام درجات المدخل وضعت جثة السجين وهو يرتدي الملابس العسكرية البولونية إمعاناً في التضليل.

قدّر لتلك الرصاصات التي أطلقت في هذه المهمة من قبل ضابط المخابرات الالمانية نوجوكس أن تكون ابتداء الحرب العالمية الثانية التي امتدت كالنار في الهشيم حتى أغرقت العالم كله بالدمار والويلات وملايين القتلى والجرحى وبحر من الدماء لم تشهد له الانسانية مثيلاً. لا سيما وقد ختمت هذه الحرب الضروس الولايات المتحدة الأميركية بإلقائها قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان، حيث قتل عشرات الألوف خلال أقل من ساعة. واستمرت هذه الحرب حتى انتصر الحلفاء ودخلوا المانيا ظافرين وانتهى هتلر منتحراً أو مقتولاً. وطوت الأيام والسنون ذكريات هذه الحرب المدمرة لبقى منها ما خلاصته أن المخابرات هي التي أشعلت الحرب العالمية الثانية.

ولكن لو قرأ الحلفاء كتاب «كفاحي» لهتلر قبل هذه الحرب، لوفروا على البشرية الكثير من الآلام والدماء والعذاب، لأن هذا الكتاب يمثل عصارة العقل الهتلري النازي الجهنمي وتخطيطه المستقبلي، وكان بالإمكان تلافي كوارثه ومآسيه.

المراجع

- ١ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». مطابع دار الحياة. بيروت. الطبعة الثانية. لا تاريخ.
- ٢ - حافظ ابراهيم خير الله «المخابرات الالمانية». (ملف عالم الاستخبارات). توزيع الشركة الشرقية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٧١.

رومل ثعلب الصحراء وأسرار محاولة اختطافه في شمال أفريقيا

النصر والهزيمة كلمتان صغيرتان في قاموس الحروب؛ وهما في الوقت نفسه رمزا الموت والحياة في قاموس الشعوب والدول. ووقائع الحرب العالمية الثانية ليست عنا ببعيدة... وكثيراً ما لعب قائد عسكري دوراً حاسماً في مثل هذه المعارك المصيرية، كما هو حال الجنرال «رومل» الملقب «بثعلب الصحراء»، والذي دفع بقيادة الحلفاء الى بذل قصارى جهودهم للتخلص منه، وأصبح على لائحته «مطلوباً حياً أو ميتاً». وحاول البريطانيون ذلك فعلاً.

فكيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذه الخطة؟.

في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني/يناير ١٩٤١، وفي خلال عشرة أسابيع تقريباً، كان قائد الجيش البريطاني في مسرح شمال أفريقية الصحراوي، الجنرال «أوكو نور»، قد حقق نصراً ساحقاً على الإيطاليين، وضع به حداً للتهديدات التي توعد بها «موسوليني» باحتلال مصر، وذلك بعد أن سحق تشكيلات الجيش العاشر الإيطالي، وأسر ١٣٠ ألف جندي بينهم ٦ جنرالات، واستولى على ٤٠٠ دبابة و٢٩٠ مدفعاً، وذلك في مقابل خسائر من جيشه لم تتعد ٤٦٧ قتيلاً و١٢٢٥ جريحاً و٤٣ مفقوداً. والأهم من هذا كله أنه تقدم ٥٠٠ ميل غرباً واستولى على قلعتين رئيسيتين بنغازي وطبرق، في حين ضاعت الى الأبد آمال «موسوليني» في دخول القاهرة دخول الغزاة

الفاتحين ممتطياً جواده الأبيض المطهّم!

سارع «أدولف هتلر» الى نجدة حليفه «موسوليني» بعد الكارثة التي حلّت بجيش المارشال «غرازياني» - الذي طالما تغنى به دكتاتور ايطاليا وتوعّد به الحلفاء - فأرسل الى هذا المسرح الصخراوي واحداً من أعظم قادة معارك الصحراء ونعني به الجنرال «رومل»، الذي حقق انتصارات سريعة وباهرة حتى باتت مدينة طبرق على شفا السقوط. وكان هذا الميناء يمثل أهمية عسكرية بالنسبة للجانبين المتصارعين: فهو شوكة في خاصرة رومل تهدد مؤخره جيشه وطرق مواصلاته، مثلما هو ميناء جيد يعتمد عليه بالنسبة للإمدادات القادمة اليه من ايطاليا ومن المانيا على السواء. أما بالنسبة لبريطانيا فقد توقفت سمعة الامبراطورية وهيبتها العسكرية وقتئذ على الاحتفاظ بطبرق بأي ثمن. وهكذا أصدر الجنرال «ويفل» - القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط - تعليماته المشددة الى الجنرال «هور سheid» - قائد الحامية الاسترالية بطبرق - بالدفاع مع جنوده عن الميناء بأي ثمن والقتال هناك حتى الموت. أدرك الحلفاء أن لا سبيل الى وقف المد الالمانى إلا بالتخلص من العقل المفكر لفيلق البانزر، الذي أصبح مجرد اسمه بين صفوف الجيش البريطاني مبعثاً للذعر والارتباك.

وهكذا بدأت القيادة البريطانية تعد للهجوم المنتظر، وقد تسلّطت عليها فكرة إبعاد «رومل» عن قيادة فيلق البانزر الالمانى المدبر: يجب شلّ عقل الجيش الالمانى في شمال أفريقية إما بقتل هذا العقل أو أسره! كان الفيلد مارشال «كلود أوتشنليك» نائب القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط، قد أصدر منذ قليل أمر قتال يومي الى «جميع الضباط العظام والقيادة في القيادة العامة للشرق الأوسط» قال فيه بالحرف: «ان هناك خطراً حقيقياً في أن يصبح اسم (رومل) بعباً ترتعب منه قواتنا، كما أصبح اسمه موضوع مناقشات طويلة لا تنتهي. إن «رومل» مهما كان قديراً أو كفؤاً فإنه ليس انساناً خارقاً للطبيعة، وحتى لو كان كذلك، فإنه من غير المرغوب فيه أن تصفه

قواتنا بهذه الصفات. لذلك أرجو أن تبذلوا قصارى جهدكم لمحو هذه الفكرة عن «رومل»، لأنه لا يزيد في الواقع عن أن يكون قائداً المانياً عادياً. لذا يجب ملاحظة عدم ذكر اسمه عندما نشير الى العدو في الصحراء الغربية: «فنقول «الالمان» أو «المحور» أو «العدو» ولا نقول «رومل»، وأنني أطلب منكم التأكد من تنفيذ هذا الأمر ومن صدور التعليمات اللازمة الى القادة الأصغر بذلك، علماً بأن لهذا الأمر أهمية نفسية (سيكولوجية) عظيمة».

كان لدى «أوتشنليك» مجموعة الصحراء البعيدة المدى، التي كانت القيادة البريطانية قد شكلتها للعمل في الصحراء الغربية، وتتكون من الفدائيين المتطوعين. وكانت هذه المجموعة تقوم بإغارات جريئة بعيدة المدى خلف خطوط الالمان. فلو أمكن استخدام قوة من هذه المجموعة للقيام بقتل أو خطف هذا الثعلب الماكر، فلا شك أن مثل هذا العمل سوف يؤثر بدرجة كبيرة على نتيجة المعركة الوشيكة. وهكذا أصبحت المشكلة تنحصر من الآن وصاعداً في اكتشاف عادات «رومل» وخط سيره وأماكن إقامته ومراكز قياداته التي كان يقوم بتغييرها بصفة مستمرة.

كانت القيادة الالمانية لجيش البانزر في شتاء ١٩٤١ أثناء الاستعداد للهجوم الالمانى تقع خلف الخطوط الالمانية في منطقة «سيرين» الأثرية بالصحراء الليبية. وفي يوم ١٧ نوفمبر ١٩٤١، كانت أعاصير الشتاء والرياح العاصفة على أشدها لبضعة أيام مضت في منطقة «بيداليتوريا»، ولم يكن «شلوسنر» - رئيس الإمداد والتموين لفيلق البانزر - في مركز القيادة آنذاك، كذلك مساعده القدير كابتن «أوتو»، حيث كان الاثنان في مستشفى «أبولونيا»: كان الأول مصاباً بالدوستاريا، والثاني يعالج من حالة التهاب رئوي حاد. أما «رومل» فكان قد غيّر مقر قيادته الشخصية في آخر شهر أغسطس الى «عين الغزالة» (التي تبعد ٤٠ ميلاً غربي طبرق) ثم نقله للمرة الثانية الى «جمبوت» (بين طبرق والبردية) وترك مقر قيادته في «بيداليتوريا» لرئاسة الإمداد والتموين، وبذلك لم تكتشف المخابرات البريطانية المقر الجديد

للرجل العجوز. ونتيجة لتلك العوامل والمتغيرات، فقد كان الكابتن «ريتر» في تلك الليلة هو قائد مقر القيادة الألمانية في «بيداليتوريا» في شهر نوفمبر ١٩٤١، كما كان «بسكول» هو نائبه في المقر. بينما جلس بقية أفراد مركز القيادة من ضباط ومراسلات راكبين، وسائقو الدبابات في المبنى المظلم، يستمعون الى صوت الأمطار المنهمرة بغزارة.

وقبيل منتصف تلك الليلة الظلماء - ١٧ نوفمبر ١٩٤١ - انصرف كل أفراد القيادة الى غرفهم في الطابق الأرضي أو الأول، حيث راح الجميع في نوم عميق، ولم تكن هناك حراسة مشددة لمقر القيادة وما جدواها في مكان بعيد كل هذا البعد عن خطوط القتال؟.

كان أحد رجال الشرطة العسكرية يقوم بأعمال المراقبة في الممر السفلي مسلحاً بـ «سونكي» فقط، بينما كان الجندي «ماتي بوكسهامر» يقوم بأعمال الحراسة الليلية في خيمة الحراسة، حيث كانت التعليمات التي لديه تسمح له بأن يرقد على فراشه بعد منتصف الليل.

وفي الوقت الذي كانت فيه «بيداليتوريا» تبدو هاجعة وهادئة، كان عدد من الأشباح السوداء قد دهنوا وجوههم باللون الأسود وارتدوا ملابس الميدان البريطانية، يتربصون بين شجيرات وأعشاب المرتفعات القريبة: وكان بإمكانهم من هذا الموقع القريب، أن يروا أضواء «بيداليتوريا» تطفأ قبيل منتصف الليل بقليل.

كان هؤلاء الأشباح المختفون في غابة السرو الصغيرة، قادمين من رحلة طويلة بعد أن أنزلتهم الغواصتان البريطانيتان «توريبي» و«تلزمان» ليلة ١٥ نوفمبر في خليج صغير مهجور على ساحل «برقة». كانت التعليمات التي سلمت لتلك القوة الصغيرة تقضي بقتل أو أسر «رومل» وذلك قبيل شن الهجوم البريطاني الكبير بإثنتي عشرة ساعة فقط!.

يعلق السير «ونستون تشرشل» على تلك العملية الانتحارية في مذكراته

فيقول: «... ولكي نشلّ العقل المفكر للعدو، ومركز أعصابه في أخرج اللحظات نقلنا بالغواصات ٥٠ مقاتلاً من الفدائيين الاسكتلنديين، تحت قيادة الكولونيل «ليكوك» الى نقطة على الساحل الليبي تبعد ١٠٠ ميل خلف خطوط العدو. وتمكن ٣٠ منهم من الوصول الى الشاطئ رغم الأمواج العاتية، حيث كونوا جماعتين احدهما لقطع المواصلات السلكية والتلغرافية، والثانية بقيادة «كيز» لمهاجمة مقر «رومل» والقضاء عليه».

كان كل شيء قد تم تخطيطه بدقة تامة، في مكتب أميرال الاسطول السير «روجر كيز» - والد قائد قوة الإغارة - الذي كان يقود عمليات الفدائيين وجماعات الإغارة البريطانية، اذ تم اختيار ٥٣ فرداً من بين مائة ضابط وجندي مارسوا التدريب الشاق في لندن لأسابيع طويلة، اختارهم الماجور «كيز» من أصلبهم عوداً، وكان قائده الثاني الكابتن «كامبل» يتحدث اللغتين الألمانية والعربية بطلاقة تامة.

في مساء ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤١، وصلت قوة الماجور «كيز» الى شاطئ برقة أثناء عاصفة هوجاء، كانت الأمواج خلالها تزمجر فوق الغواصة «توربي» التي أخذت تتأرجح فوق المياه كعلبة من الكبريت، لتقلب بهم قوارب المطاط مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تجري عمليات الانقاذ. وأخيراً أمر الماجور «كيز» رجاله بالتمسك بحبال القوارب مع النضل للوصول الى الشاطئ؛ وبعد كفاح مريع نجح «كيز» ومجموعته - ٢٢ - رجلاً في الوصول الى الشاطئ.

أما بالنسبة للغواصة الثانية «تلزمان» فقد ساءت الأمور: غرق رجلان في حين عاد الى الغواصة عدد كبير من الفدائيين أعضاء مجموعة الكولونيل «ليك» بسبب ارتفاع الأمواج، وبذلك لم يصل الى الشاطئ سوى سبعة رجال فحسب، لتتخفف قوة الفدائيين بذلك الى النصف، مما أدى بالميجر «كيز» الى أن يقرر اقتضار عمل القوة على محاولة خطف «رومل» أو التخلص منه، وإهمال الشق الثاني من المهمة.

بقي الكولونيل «ليكوك» ومعه ٣ رجال في الخلف عند نقطة الانزال على الساحل لستر عملية عودة الفدائيين بعد انتهاء المهمة، بينما اتجه باقي القوة (٣ ضباط + ٢٥ جندياً) الى الصحراء سيراً على الأقدام وهم يرتعشون نتيجة لابتلال ملابسهم وبرد الصحراء الشديد في تلك الليلة.

على مسيرة ١٥ دقيقة، كان هناك «أعرابي» في انتظارهم: كان هذا الاعرابي هو الليفانت كولونيل «جون هزلدين» - الضابط في قوة مجموعة الصحراء البعيدة المدى - وكان منذ فترة طويلة يعيش متخفياً في زي البدوي في صحراء برقة؛ على أية حال، شرح لهم «هزلدين» الموقف والطريق الى مقر قيادة «رومل». ثم أعطى الميجر «كيز» ثلاثة من المرشدين العرب، وهكذا سارت المجموعة نحو هدفها المنشود.

في ليلة ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤١ وقف الميجر «كيز» ورجاله فوق التلال بالقرب من «بيداليتوريا» ليحددوا موقعهم واتجاههم: في الأمام مباشرة كانت الأكواخ الخشبية وبعدها بمسافة قليلة غابة السرو، وفي الوسط تقع المباني الحجرية الضخمة - هدفهم المنشود - حيث يعمل ويقيم «رومل»، طبقاً لمعلومات إدارة المخابرات البريطانية، وهي المعلومات التي أتت بها كذلك معلومات «هزلدين».

كان «كيز» ورجاله على ثقة تامة من هذه المعلومات، ولكن الجميع كانوا ضحايا لخطأ جسيم، وليس من العسير اكتشاف سبب هذا الخطأ الجسيم الذي وقعت فيه المخابرات البريطانية.

ففي أواخر يوليو ١٩٤١ تقلد الجنرال «رومل» قيادة فيلق البانزر الأفريقي - الذي كان حديث الانشاء آنذاك - وكانت القيادة تعسكر في منطقة «بيداليتوريا»: «رومل» ورئيس أركانه الميجر جنرال «جوس» والجنرال «وستفال» وأركان حرب العمليات في مبنى البلدية السابق، وعدة مباني أخرى مجاورة، وضعت عليها لافتات صغيرة لتمييز وظائف شاغليها. وكانت هذه اللافتات معروفة بالنسبة لإدارة المخابرات البريطانية حيث يعتقد أن العملاء

الانكليز كانوا قد نجحوا في التقاط بعض الصور الفوتوغرافية لها.

كانت وزارة الحرب البريطانية تعلق آمالاً كبيرة على التخلص من «رومل» قبيل بدء المعركة الفاصلة. لهذا ترك الميجر «كيز» - قائد قوة الإغارة - رسالة مؤثرة لوالده أميرال الاسطول ختمها قائلاً: «إذا نجحت الإغارة وتخلصنا من خصمنا، تكون بريطانيا قد تقدمت للأمام، وهو أمر يستحق الكثير حتى لو فقدت حياتي في سبيله».

انهمرت الأمطار بغزارة... وكأنما كان البرق والرعد هما الموسيقى المصاحبة لهذه المغامرة المثيرة. وفي منتصف الليل تماماً كان الميجر «كيز» يشرح لرجاله اللمسات الأخيرة للهجوم الانتحاري... كان عليه هو و«كامبل» والرقيب «تيري» وستة أفراد آخرون، الزحف الى مدخل مبنى البلدية، بينما يقوم ثلاثة أفراد آخرون بالدوران حول المبنى للوصول الى الباب الخلفي. أما الحارس الالماني الذي كان يقف في منتصف فتحة الباب الأمامي، فقد كان على الرقيب «تيري» أن يقتله بخنجره. ولكن الجندي تحرك فجأة فأخطأ الخنجر طريقه اليه، وسرعان ما اشتبك الرجلان في صراع عنيف بالمر.

صاح الحارس الالماني: «النجدة»، ولكن صياحه ضاع وسط الرياح والرعد والمطر المنهمر، وساهم في ذلك أصوات تدمير محطة توليد الكهرباء التي كانت تبعد نحو ٣٠٠ خطوة عن المبنى.

لم يتمكن المغيرون - خلال الاشتباك الذي دار في الممر الضيق - من استخدام رشاشاتهم السريعة الطلقات. حاولوا خنق الحارس واسكاته، ولكن الجندي الالماني كان قوي البنية ودافع عن نفسه ببسالة، ولكنه سقط في النهاية مضرجاً بدمه أمام الباب الأول.

نادى «كامبل» - الذي يتحدث الالمانية - الحارس الالماني، الذي ما إن خرج حتى بادره الميجر «كيز» بوابل من الرصاص أرداه قتيلاً... قفز «كيز»، و«كامبل» و«تيري» فوق جثة القتيل، وأداروا مقبض باب الحجرة

الأولى وفتحوه ليواجههم ضوء يعمي الأبصار. أخذ الضباط الالمان الذين كانوا يجلسون حول المائدة يحملقون في دهشة نحو هؤلاء «المتطفلين» ودون أي كلمة، وقبل أن يفيقوا من هول المفاجأة حصد الميجر «كيز» رقاب أقدر الرجال في الفيلق الالمانى برشاشه. ثم اتجهت قوة الإغارة نحو الغرفة التالية، وفتحوا بابها عنوة، ولكن الظلام ساد المبنى فجأة، وقابلتهم نيران مركزة من مسدسات الضباط الالمان. أصيب الميجر «كيز» برصاصات خمس أنهت حياته، وقفز «تيري» للأمام، وأطلق عدة دفعات من رشاشه في الحجرة وخارجها.

أدرك «كامبل» آنذاك أن «كيز» قد أصيب في مقتل، وأنه كذلك قد أصيب في ساقه لذا سلم قيادة المجموعة الى الملازم «كوك» الذي وقع على عاتقه، اعتباراً من هذه اللحظة، مهمة قيادة المجموعة والعودة بها الى الشاطئ.

وطبقاً لسجلات المخابرات من كلا الجانبين: الالمانى والبريطاني، والأبحاث التي أجريت بعد انتهاء الحرب، فالمعتقد أن أربعة من هيئة الأركان الالمانية قد لقوا مصرعهم، وأصيب عدد أكبر من ذلك. أما هدف العملية كلها: «رومل» فقد غادر «بيداليتوريا» الساعة الثامنة والنصف من مساء ذات اليوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر لحضور حفل زواج أحد الشيوخ، ليعود ثانية بعد منتصف الليل بأربعين دقيقة. ومن ذلك يتبين أنه كان في مقر القيادة الذي هوجم بعد انتهاء الإغارة بأربعين دقيقة فقط أنقذت حياته.

وبذلك انتهت المغامرة الكبرى بالفشل الذريع نتيجة لظروف غير متوقعة، ومقاومة أبداها عدة رجال من جنود وضباط فيلق البانزر الالمانى. ولا يمكننا التفكير الآن فيما كان سيحدث لو كان المغيرون الانكليز قد تمكنوا من دخول مقر القيادة في صمت وسكون، ودمروا رئاسة الإمدادات والتموين تدميراً كاملاً، قبل بداية الهجوم البريطانى الكبير بنحو خمس ساعات فقط: عندئذ كان وضع الإمداد والتموين للفيلق الالمانى سيصبح في موقف لا

يحسد عليه على الإطلاق، لكنها احدى سخریات القدر.

لم یجرؤ الجنود الانكليز المنسحبون - بعد أن فقدوا قائدهم ونائبه ولم یقتلوا رومل - على العودة مباشرة الى الغواصة التي كانت تنتظرهم، وذلك خوفاً من تعقبهم بواسطة القوات الالمانية الخاصة، التي قد ترسل للبحث عنهم، لذلك قاموا بالاختباء لدى الأعراب بمنطقة مجاورة.

خرجت قوة المانية - ايطالية مشتركة للبحث عنهم فجر اليوم التالي، وقامت بتفتيش دقيق لكافة المناطق عدة أيام، لم تتمكن من التوصل الى مكان تلك القوة التي اختفت كأنما انشقت عنها الأرض وابتلعتها!.

بعد عدة أيام قبض على أول جندي بريطاني في نفس الكوخ الذي كانت القوة الالمانية - الايطالية قد فتشته من قبل، وكان يرتدي ملابس الأعراب. وما لبث بقية الفدائيين الانجليز أن وقعوا في أسر الالمان. ولم ينجح من الإفلات منهم سوى الرقيب الداهية «تيري» الذي تمكن من تدبير هروبه مع رجلين، حيث وجد طريقه الى الخطوط البريطانية.

لم يُعامل الأسرى الانجليز معاملة العملاء، حيث كان يعني ذلك إعدامهم رمياً بالرصاص ولكن «رومل» - بعد أن حصل على تصديق خاص من هتلر شخصياً - قام بمعاملتهم كأسرى حرب. أما قائد الإغارة الميجر «كيز» فقد دفن في مقبرة «بيداليتوريا» مع الأربعة الالمان القتلى، الذين تم دفنهم في جنازة عسكرية.

ان عملاً من هذا النوع - في الواقع - يستحق الاعجاب والتقدير. وبالرغم من الخسارة الكبرى التي مني بها «المحور» بعد هزيمته في الحرب العالمية الثانية، فتبقى للجنرال «رومل» - ثعلب الصحراء - أهميته الكبرى في الحرب والسلم. وشخصية من هذا الطراز جديرة بالتقدير والثناء والقدوة.

المراجع

- ١ - العميد الركن محمد فيصل عبد المنعم «رومل . . مطلوب حياً أو ميتاً». مجلة «الحرس الوطني» (السعودية). السنة السادسة. العدد ٣٥. محرّم ١٤٠٦ هـ/أكتوبر-تشرين أول ١٩٨٥. ص ٧٣ - ٧٧.
- ٢ - رمضان لاوند «الحرب العالمية الثانية، عرض مصوّر». دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة التاسعة. ١٩٨٢. ص ١٣٨ - ١٤٤.

عملية كروسيدر وصراع البقاء بين الحلفاء والمحور

لم تشهد البشرية حرباً مدمرة وقاسية كتلك التي تُعرف بالحرب العالمية الثانية. إلا أن الكثير من عملياتها مثلت نقطة فاصلة في تاريخ هذه الحرب، كما قصّرت بالتالي من عمرها الكوارثي. وكان من بين هذه العمليات وأكثرها أهمية «عملية كروسيدر»، التي كانت منطقة شمالي أفريقية مسرحاً لها، وبالتحديد في الصحراء الأفريقية وميناء طبرق، باعتبارها من أكثر المواقع الاستراتيجية أهمية للإستعمار الغربي.

كيف حصلت عملية «كروسيدر»؟ وما هي أسرارها؟.

أحرز البريطانيون في شمال أفريقية خلال عام ١٩٤٠، انتصارات كاسحة على جيوش ايطالية كانت تتفوق عليهم عدداً عدة مرات. وكانت نتيجة ذلك أن هبّت المانيا الهتلرية الى نجدة حليفها ايطاليا الفاشستية، فأرسلت الى الساحة الأفريقية ما سُمّي وقتئذ بالفيلق الأفريقي، بقيادة الجنرال «وومن» ثم المارشال «أروين زومل»، الذي دفع البريطانيين وردّهم على أعقابهم حتى الحدود المصرية. بيد أن مدينة طبرق الليبية بقيت بأيدي البريطانيين، وثبتت صامدة للهجوم المحوري وحصاره.

وبتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٤١، قامت قوات بريطانية والكومنولث، بقيادة الجنرال «أوتشنليك»، وبإسناد ما يزيد عن ٧٠٠ دبابة، بالهجوم على القوات الالمانية، فيما عرف بعملية «كروسيدر».

جرت عمليات «كروسيدر» في الصحراء الأفريقية، ابتداء من ١٨

تشرين الثاني/نوفمبر وحتى وقت متأخر من شهر ديسمبر ١٩٤١. وكانت «كروسيدر» بجملتها معركة مشوشة متلبكة، استعمل الجيش البريطاني فيها، لأول مرة، قوة مدرعة على مواجهة كبيرة. وقد أحدث قدوم الفيلق الألماني الأفريقي، غير المتوقع، الى شمال أفريقيا عام ١٩٤١، قلقاً كبيراً وانزعاجاً شديداً لقيادة الحلفاء، وأرغم قواتها على التقهقر من ليبيا والانسحاب الى ما وراء الحدود المصرية. وقد خلفت هذه القوات وراءها حامية محاصرة في ميناء طبرق، على الساحل الليبي. وقد صار الإفراج عن هذه الحامية هدفاً أولياً لقائد قوات الحلفاء، الجنرال «كلود أوتشنيك»، الذي صرف معظم صيف عام ١٩٤١ وهو يعد لهجوم كبير مضاد. كان «أوتشنيك» يدرك أن هجوماً استراتيجياً مضاداً يستدعي لنجاحه كميات كبيرة من المعدات، بما في ذلك الدبابات، وقد استغل كل وقت توفّر له للعمل على الوصول بقوات الدبابات الى مستوى مقبول. واستطاع بالفعل أن يجمع ٧٥٠ دبابة كان منها ٣٣٦ دبابة نوع «كروز»، من نماذج قديمة وحديثة، و٢٢٥ دبابة مشاة نوع «ماتيلدا»، و١٩٥ دبابة خفيفة أميركية، نوع «ستيورات»، كانت قد وصلت حديثاً الى الشرق الأوسط، لتحل مكان الدبابة الخفيفة والأقل جودة، نوع «فيكرس». وكان من سوء حظ البريطانيين أن هذه الدبابة الأميركية، رغم ميزاتها العديدة، لم تكن متأقلمة صحراوياً، وكانت تنقصها أجهزة الاتصال اللاسلكية، ولذلك فقد أرسلت فور وصولها الى الورش الفنية ليجرى عليها برنامج تعديل كان سبباً في تأخير الشروع بعملية «كروسيدر» عن موعدها كما كان قد خطط له.

كان لدى «رومل» مقابل هذا العدد الكبير من المدرعات البريطانية، ٣٢٠ دبابة، منها فقط ٣٥ دبابة مسلحة بمدفع من عيار ٧٥ ملم. لكن مثل هذا النقص العددي كان معوّضاً ومستوراً بشيء هام، وهو أنه كان لدى الالمان عدد كبير من المدافع المضادة العظيمة التأثير والفاعلية، ومن أهمها المدفع المشهور عيار ٨٨ ملم. كما كان الالمان قد وضعوا وطوروا عدداً من التكتيكات الفاعلة بغية تحقيق تعاون مثمر متبادل بين الدبابات والمدفعية والمدافع المضادة للدروع. وكان البريطانيون من جهتهم يفتقرون عامة الى

مثل هذا التعاون بين الأسلحة، كما كانت إحدى أسلحتهم الرئيسية، وهي مدفعية الميدان، في حالة عزيمة من الشلل والفوضى، على أعقاب إعادة تنظيم أساسي تمت في منتصف مراحل المعركة. وكثيراً ما كانت هذه المدفعية تجد نفسها مبعثرة، فاقدة لأي تنظيم يستطيع أن ينتج مفعول النيران المحتشدة، الحيوية لقيام دفاع ناري مجدٍ ضد الدبابات.

أطلق الحلفاء على خطة هذا الهجوم الاستراتيجي المضاد اسم «كروسيدير»، وكان من أهم أهدافهم الإفراج عن الفرقة ٧٠ المحصورة في طبرق. في حين كان الهدف الكلي العام للهجوم تدمير قوات العدو المدرعة. وكان الجزء الضارب الرئيسي في هذا الهجوم هو الجيش الثامن، المؤلف من الفيلق ٣٠ والفيلق ١٣. وكان يتوقع أن تنجح الفرقة ٧٠ في كسر الحصار المضروب حولها في طبرق، لتضم جهودها إلى جهود الفيلقين القويين.

كانت خطة العملية «كروسيدير» في أساسها، بسيطة. كان على الفيلق ١٣، مبدئياً، أن يمسك الطريق الساحلية، وكذلك المسالك والدروب الموصلة إلى المناطق اللوجستية الهامة في المؤخرة. أما الفيلق ٣٠، فكان عليه أن يندفع جنوباً، ومن ثم شمالاً باتجاه طبرق. وعلى حامية هذه المدينة المحاصرة أن تقوم، عند حلول الوقت الملائم، بالتحرك لكسر الطوق، على أن تسعى لمفاجأة العدو من خلفه.

بدأت العملية في ١٨ نوفمبر ١٩٤١، بحركة الفيلق ٣٠. كان هذا التشكيل بمعظمه مدرّعاً، وتألّف من الفرقة المدرعة السابقة، والجحفل المدرّع ١٤، ولواء الحرس الميكاني ٢٢، وكذلك من فرقة جنوب أفريقية الثانية كاحتياط. وقد تحرك هذا الفيلق حول الأسلاك الحدودية الفاصلة بين مصر وليبيا، مندفعاً خلال مناطق التعسكر الإيطالية الصحراوية، القديمة والمقفرة، والتي كانت قد استولي عليها في العام الماضي، ومن ثم تحول ليندفع شمالاً باتجاه طبرق.

إن الموقع الرئيسي البارز، على مسالك الوصول إلى طبرق، هو مرتفع

«سيدي رزق»، على بعد ١٩ كلم من محيط المدينة جنوباً، ومطاره الهام. وقد تحول هذا المرتفع ليصير أكثر المعالم أهمية أثناء ما تبع من عمليات، وليكون، طوال الأيام والأسابيع التي تلت، موضوعاً لمرات متعددة من احتلال واستعادة بين طرفي النزاع. غير أن التماسك العام للفيلق ٣٠، أخذ يتفكك ويتكسر منذ أن بدأت الحركة في مراحل العمل المبدئية. فالعناصر الرائدة، بدلاً من أن تبقى قوة متضامنة، راحت على العكس تنتشر بالتدرج على شكل مروحة عبر الأراضي الصحراوية، جاعلة من اعتراض العدو وتشتيته لمختلف الأرتال مسألة هيّنة نسبياً. كانت الأرتال الحليفة المتقدمة تواجه، المرة تلو المرة، بقوات صغيرة المانية أو إيطالية كانت تتسبب في التبطئة والتأخير، وتنجح في نشر التلبك والفوضى وتمزيق الأوصال. وكانت الاتصالات بين مختلف الوحدات الحليفة شبه مستجيبة، بسبب سوء الأجهزة اللاسلكية المتوفرة، وانخفاض مستوى التدريب بوجه عام. وهكذا، وعوضاً عن زحف مترابط حذر دقيق، فقد تحولت حركات الفيلق ٣٠ باتجاه «سيدي رزق»، تدريجياً، الى سلسلة من الحركات المشتتة.

وقد أمكن، عند وصول الفيلق الى مسافة قريبة من «سيدي رزق»، أن يتحقق شيء من التحشد. ولكن، وبينما كان الحلفاء يعدّون لهجوم على هذا المرتفع، فوجئوا أولاً بهجوم الماني عنيف. وكان أن تصدّع مخطط الحلفاء، وتحول هجومهم المتوقع الى سلسلة من العمليات الدفاعية المستعجلة، كانت قطعان الدبابات تلقى في أتونها قطعة بعد أخرى. وكانت المدفعية تنجح أحياناً في انقاذ الموقف هنا وهناك؛ لكن هذه المدفعية، في أحيان كثيرة، كانت تترك منعزلة لتوفير اسناد ناري في حدود المستطاع. وقد جرت محاولة من حامية طبرق لكسر الحصار، وللإشتراك في المعركة الدائرة، ففشلت المحاولة وأدت الى خسارة ٦٠ دبابة من أصل ١٠٩ دبابات كانت في حوزة الحامية قبل المحاولة. وقد خسر أحد الألوية معظم دباباته، ولم يبق لديه منها سوى ٣٨ دبابة. وكان البريطانيون على قاب قوسين من كارثة، إلا أنهم نجوا

من ذلك بوصول أحد ألويتهم المدرعة الكاملة العدد الى ميدان القتال في الوقت المناسب.

وكذلك كانت خسائر الالمان ثقيلة. وقد تراجعوا تاركين «سيدي رزق» في أيدي الحلفاء، لكن لفترة قصيرة من الزمن. خيم الهدوء على الجبهة لبعض الوقت، وظل كذلك الى أن عاد الالمان الى الهجوم بقوة من مستوى فرقة، واستولوا بطريق الصدفة على المقر العام لأحد الألوية المدرعة بكامله. وقد أحدثت هذه الخسارة مزيداً من البلبلة والفوضى في القتال، وانتقل «سيدي رزق» الى أيدي الالمان من جديد. وفي هذه الاشتباكات ظهر بوضوح تفوق الالمان في الجاهزية القتالية والمرونة التكتيكية، مرة بعد مرة، بينما كان الحلفاء يعملون غالباً على معالجة الصعوبات المحلية بمهاجمات متهوّزة. وقد مني الحلفاء من جراء هذا التكتيك على وجه العموم بخسائر ثقيلة باهظة. إلا أن الفيلق ٣٠، استطاع بحلول ٢٣ نوفمبر أن يتوصل الى حشد مدرّعاته من جديد. ومن المعروف أن القتال في الصحاري عادة صعب وعسير. وفي مثل هذه الأراضي تسود المتناقضات: الحر الشديد والبرد الشديد... الجفاف أبداً والغبار بشكل دائم، واستعمال المركبات الآلية في بيئة كهذه يفرض صعوبات بالغة في الاعتناء والصيانة:.. حبيبات الرمال تجد طريقها دوماً الى أحسن أجزاء المحرك حماية ووقاية، وتصبح عملية التنظيف، من جراء ذلك، في طليعة الاهتمامات اليومية.

وفي وقت مبكر من يوم ٢٣ نوفمبر، نجح الحلفاء بدورهم في وضع اليد على المقر العام للفيلق الالمانى الأفريقي، لكن القائد الالمانى، الجنرال «كروول» كان متغيّباً، وقد تفاعل مع هذا الطارئ بعنف وفاعلية، بالهجوم حالاً في منطقة «سيدي رزق» ونجح فطرد الحلفاء على الفور من هذه المنطقة، مقوّضاً بذلك خطط وآمال قيادة الجيش الثامن. وقد قدرت هذه القيادة حينئذ أن الموقف صار يتطلب استعمال الاحتياط كله في محاولة أخرى للإستيلاء على «سيدي رزق»، وأخذت في الاستعداد لذلك. وقد ساعد رومل على تسريع هذا الاستعداد من جانب الحلفاء، باختياره ذلك

الوقت عينه، للقيام بإحدى غاراته التي اختص بها، وتوغل عميقاً في مؤخرة الحلفاء، عابثاً بأنحاء كثيرة من هذه المنطقة. لقد اعتبر البعض تلك الغارة في وقتها حركة ماهرة وتهديداً خطيراً للحلفاء، غير أنها في الواقع كانت خطأ تكتيكياً كبيراً، لأن رومل ترك وراءه قوات ضخمة من قوات الحلفاء، وسريعاً ما احتشدت هذه القوات وباتت جاهزة للهجوم على «سيدي رزق».

وكان الوقت لشن هذا الهجوم، عندما توصل الحلفاء، بحشد من نيران المدفعية هذه المرة، الى احتواء غارة رومل وإيقافها. لكن حدث أن قام الالمان، هذه اللحظة بالذات، بهجوم مضاد بفرقة مدرعة، فقبيل هذا الهجوم، هذه المرة أيضاً، بسرية من مدفعية الميدان، استطاعت أن توقف المهاجمين عند فوهات مدافعها تقريباً دافعة في سياق ذلك ثمناً باهظاً. إلا أن صمود هذه السرية كان كافياً لضبعة توازن الالمان؛ فاغتتم الحلفاء هذه الفرصة، ليدفعوا بمزيد من دبابات الاحتياط الى الفيلق ٣٠، وليعود القتال الى الاشتداد بعد فترة من الخمود والركود.

كل هذه المهاجمات كانت صورة نموذجية عن تكتيك العمل. في ذلك الزمن كانت دبابات الحلفاء تندفع هاجمة، مرة بعد مرة، على دفاعات مضادة للدبابات فتحصدها هذه الدفاعات حصداً، وتقوم بدور كان أكثر من عملية توازن بين مهاجم ومدافع. ورغم ذلك، فقد أخذ الحلفاء بالتدريج، يتحركون قدماً الى أن تمكنوا من تحقيق ارتباط مع حامية طبرق. ولمرة أخرى، وقع «سيدي رزق» في أيدي الحلفاء.

لكن الحلفاء لم ينعموا بهذا الكسب طويلاً. فقد بادر الالمان، بتكتيك نموذجي، الى القيام حالاً بهجوم مضاد، فأوقعوا الفوضى في صفوف الحلفاء، واستعادوا «سيدي رزق» من جديد، وبذلك انقطع الارتباط مع طبرق. وتراءى لمرة أخرى أن رومل قد كسب الجولة أيضاً. إلا أن هذا كان وهماً. فقد كان لا يزال لدى الحلفاء احتياط يكون جاهزاً بعد أن يعيدوا تنظيم أنفسهم، في حين لم يكن لدى رومل أي احتياط بالمرة. وكان هجومه

المضاد الأنف الذكر عبارة عن تضليل وتحويل للأنظار أملاً بأن يؤدي الى انسحاب خاطيء لقوات خصومه وهم يجتازون مرحلة حيوية حرجية . ولقد أرغم في النهاية على التراجع بدوره، واستطاعت القوات الالمانية والايطالية، في سلسلة من الحركات الحسنة التخطيط، أن تنسحب بانتظام حتى «العدم» ومن ثم الى «العقيلة». وقد استمرت هذه الحركة التراجعية حتى تاريخ ٦ كانون الثاني/يناير عام ١٩٤٢، وذلك بالرغم من أن عملية «كروسيدير» كانت قد انتهت قبل ذلك بوقت كبير.

حققت هذه العملية بعض أهدافها، وهو الإفراج عن مرفأ طبرق وحامية المدينة، لكنها لم تحقق هدفها العام وهو تدمير قوات العدو المدرعة فبقيت هذه القوات سليمة، تنتظر الفرصة المقبلة للحركة شرقاً من جديد، لتستولي هذه المرة على طبرق، ولكي تصل حتى موقع العلمين حيث سيكون رومل على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الاسكندرية.

وقد اعتبر الحلفاء هذه العملية بمثابة انتصار لهم، وربما كانوا على حق في ذلك، إلا أن هذا النصر كلفهم ثمناً غالياً جداً. وقد نتجت هذه التكلفة، أو معظمها، عن أخطائهم التي تمثلت خاصة فيما يلي:

١ - التشتت بدل التحشد.

٢ - تهور وطيش في مهاجمات ضعيفة ضد مواقع قوية الدفاع.

٣ - تغذية لمجموعة من المعارك الصغيرة بمجموعات قتال صغيرة، بدلاً من الانتظار حتى سنوح موعد ومكان الضربة الهامة القاصمة.

وفيما يتعلق بدبابات الحلفاء، فإن ما ظهر منها لم يكن ليحظى بالشأن والتقدير. وكذلك كانت الحال حتى مع النموذج الجديد لدبابة «كروزادر» المسلحة بمدفع عيار رطلين، اذ ثبت أن هذه المدرعة عاجزة حيال دبابات مجهزة بأسلحة من عيار أكبر وسرعة أعلى، وأن تدريعها ضعيف الوقاية ضد مثل هذه الأسلحة. ولم يكن حال الدبابة الأمريكية الجديدة «ستيوارت»

بأحسن حال من الدبابة «كروزادر». وقد ظهر أن الدبابة الأمريكية مفتقرة الى المدى العملياتي، وقد تعرضت هي ودبابات المشاة الخفيفة «ماتيلداس» و«فالتين» الى خسائر ثقيلة من قبل المدفع الالمانى عيار ٨٨ ملم.

وعلى كل حال، ورغم كل ما حصل، فقد تعلم الحلفاء من أخطائهم، وصاروا بالتالى أحسن استعداداً وأكثر لياقة لخوض المعارك القادمة، معارك كانت هزائم في أول الأمر، لكنها قادت بالتأكيد أخيراً الى النصر. والفشل - كما يقال - هو أم النجاح. ومن لا يعمل لا يخطئ.

وتبقى العبرة أخيراً، في الاستفادة من كل الدروس والتجارب؛ كما يتحتم تحويل الهزائم الى انتصارات، لأن الحياة في النهاية هي صراع على الوجود والبقاء.

المراجع

- ١ - العقيد محمد صفا «عملية كروسيدر». مجلة «الحرس الوطني» (السعودية). السنة السادسة. العدد الثالث والثلاثون. ذو القعدة ١٤٠٥ هـ / اغسطس / آب ١٩٨٥. ص ٥٤ - ٥٧.
- ٢ - رمضان لاوند «الحرب العالمية الثانية، عرض مصوّر». دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة التاسعة. يناير ١٩٨٢. ص ١٣٨ - ١٤٤.
- ٣ - العميد الركن محمد فيصل عبد المنعم «رومل.. مطلوب حياً أو ميتاً». مجلة «الحرس الوطني» (السعودية). السنة السادسة. العدد الخامس والثلاثون. محرم ١٤٠٦ هـ / اكتوبر - تشرين أول ١٩٨٥. ص ٧٣ - ٧٧.

الجاسوسية وصراع الأبالسة

كلما هلّ عصر جديد على البشرية، يستفيق الانسان على تطورات لم تعرفها الانسانية من قبل، وعلى فنون في المكر والخداع متقدمة جداً عما سبقها. ويبقى الانسان أولاً وأخيراً سيد الموقف. كما تبقى الحرب العالمية الثانية مسرحاً غنياً لمختلف الأساليب التي جسدت بشكل كبير عظمة الانسان وعبقريته، وخصوصاً في مجال الاستخبارات والتجسس. وفي الوقت الذي تأكد فيه جلياً أن «لا تجسس بغير مال»، فقد لعبت بعض الشركات المالية في أميركا، والتي كانت توجّه من قبل النازي أدولف هتلر، دوراً هاماً في هذا المضمار، بعد أن شكلت «وكراً معلوماتياً» لا بأس به.

فما هي بعض هذه الشركات؟ وما هي أسرارها؟.

ففي شروق اليوم السابع عشر من شهر يونيو ١٩٤١، وصل «ولبوركيغان» الى مكتبه في نيويورك، فصبّحته رسالتان أطارتا صوابه. و«ولبوركيغان» هو القائد النابغ «للرابطة الالمانية الاميركية» وصحيفتها «الامريكي الحر» التي تعمل على نشر الدعاية النازية..

أما الرسالة الأولى، فخطاب من مصرفه ينبئ أن الأموال المودعة لديه لحساب «الامريكي الحر» قد جمدت تنفيذاً لقرار صادر من وزارة المالية. وأما الرسالة الثانية فصورة من أمر لرئيس الحكومة يحظر فيه على جريدة «الامريكي الحر» أن تقوم بأي تصرف مالي إلا بعد أن ترفع الى وزارة المالية بياناً وافياً عن أعمالها كافة.

وأمسك «كيجان» تلفونه بلهفة، فإذا أنباء سيئة أخرى تطرأ. فقد صدرت أوامر مماثلة تجمد كل موارد النازي المالية، وأن ما دهمى الرابطة ذاتها قد دهمى «اتحاد المهن الالمانى الأمريكى» و«الجمعية الأمريكية للإعانة الالمانية»، وعشرات غيرها من الهيئات الصغيرة الملحقة بها..

وأخذ رئيس الرابطة يزمجر: «انهم لا يستطيعون أن يفعلوا هذا بنا، اننا مواطنون أمريكيون، وها نحن نضطهد على يد جستانبو أمريكي».

ولكن وزارة المالية نعتت عملها بأنه «مراقبة الاعتمادات الأجنبية» وقد أنشئت هذه الادارة قبل الهجوم على «بيرل هاربور»، وتبين فيما بعد أن انشاءها كان من أحكم القرارات التي اتخذت في هذه الحرب على الصعيد الأمريكى. وفي الحرب العالمية الأولى، كانت جهود وكلاء الالمان في الولايات المتحدة ظاهرة الأثر في أعمال التخريب، وأهمها الانفجار الذي حدث في مدينة «جرسي» ويعرف باسم انفجار «بلاك توم». أما في هذه الحرب العالمية الثانية فتكاد تنعدم حوادث التخريب وقلما نجحت أعمال التجسس. وسبب ذلك أن «إدارة مراقبة الاعتمادات الخارجية» سلبت وكلاء العدو نقودهم، وقبضت على أموالهم، وأوصدت الأبواب في وجه المال الوارد من الخارج، ولا تجسس بغير مال. وقد بلغ من احكام تدابير وزارة المالية ان اضطر «المخربون» الذين نزلوا من غواصة بجزيرة «لونج ايلاند»، أن يجلبوا معهم نقودهم، وقد بلغت ١٧٧ ألف دولار ورقاً من فئة ٥٠ دولاراً..

والى سنة ١٩٤٠، كانت حملة وزارة المالية على وكلاء العدو قد أخذت تسير سيرها، فلما اجتاح هتلر غرب أوروبا تلقت المصارف ومكاتب السماسرة الأمريكية عدة برقيات من الممالك المحتلة، بالتصرف في الأوراق المالية والنقود المودعة بأميركا حيث ارتابت الحكومة في أن تكون هذه البرقيات قد صدرت تحت ضغط وتهديد، فحظرت انفاذ هذه التصرفات ما لم ترخص بها، وجعلتها لا تصدر ترخيصاً إلا بعد أن تقف على جلية الأمر..

فلما كانت سنة ١٩٤١ بلغ النشاط النازي في إحداث الفتن حداً مروعاً، ولم يكن بد من مقاومته بسلاح أشد صرامة. فأصدر رئيس الحكومة أمراً في ١٤ يونيو يحرم على كل أوروبي في الولايات المتحدة، فرداً كان أو مؤسسة، أن يعقد أية صفقة مالية بغير ترخيص سابق من وزارة المالية. ولأسباب قوية شمل الحظر أيضاً كافة الأفراد والشركات اليابانية، وسوى بهم الصينيين رغبة في حمايتهم. وطبق الحظر أيضاً على كل الهيئات التجارية الأمريكية، إذا كانت مدينة لأي فرد في هذه الممالك أو إذا كان من الممكن أن تخضع لأية صورة من صور الإشراف أو التدخل الأجنبي. فوجب على جميع هؤلاء أن يراجعوا وزارة المالية قبل التصرف في أموالهم، وإلا كانوا عرضة للحبس أو لغرامة قدرها ١٠ آلاف دولار. وتضمن أمر الرئيس مادة تقضي بسريان أحكامه أيضاً على كل مواطن أمريكي يتهم بأنه من وكلاء العدو الألماني، إلى أن تثبت براءته. وهذه المادة هي التي طبقت على «ولبوركيجان» وعلى «الأمريكي الحر» الصحيفة النازية..

وهكذا أصبح لزاماً على أهل الريبة، الذين لا يستطيعون سحب مبلغ من حسابهم في المصارف، أن يلجأوا إلى وزارة المالية حتى من أجل أن يأكلوا. وكان حتماً عليهم أن يفضوا بحقيقة أمورهم دون أن يعلموا مقداراً تعلمه السلطات الأمريكية عنهم، فإذا كذبوا وقعوا لساعتهم في الفخ..

وقد كانت وزارة المالية تعلم أموراً كثيرة، على ما يبدو، وتحت سلطاتها مصادرها الخاصة تستقي منها معلوماتها: «مكتب الاستخبارات السرية» و«خفر السواحل» و«مصلحة الضرائب» و«الجمارك» و«المصارف الحكومية» وما يتبعها من ١٥٠ ألف مصرف تجاري. وزد على ذلك أنها تلقى العون من قلم الاستخبارات الحربية و«إدارة الرقابة البريطانية» ومن كل سفارات أمريكا وقنصلياتها..

ولم تغب شمس ١٤ يونيو حتى بدأ ينهال على «إدارة مراقبة الاعتمادات الأجنبية» في واشنطن، سيل من طلبات الترخيص، وبيانات

وإقرارات عن الملكية . .

ثم حرم انتقال ملكية الأموال الأجنبية، وبلغ مقدار ما شمله التحريم ٧ ملايين دولار. وشملت وزارة المالية برعايتها من لم تشك في براءتهم ومنحتهم حوالي ٤٠٠ ألف ترخيص مؤقت . .

وكان أكبر صيد وقع في شركها هو «الشركة العامة للانيلين والأفلام» وهي شركة كيميائية أمريكية لها مصانع في نيوجرسي ونيويورك، وتبلغ أموالها ٦٦ مليون دولار ويدخل في ملكيتها عدة شركات أمريكية ملحقة بها، وأهمها شركة «أجفا انسكو» بنيويورك. وقد قرر مديرو الشركة أنها أمريكية الجنس، ولا تخضع لأية رقابة أجنبية. ومع ذلك فقد كانت هذه الشركة مدرجة على قائمة أهل الريية بعد ١١ يونيو ١٩٤٠، حين طلب مصرف في نيويورك ترخيصاً لكي يسلم بمقتضاه الى مشترٍ جديد في سويسرا، قسماً كبيراً من أسهم الشركة التي كان يحتفظ بها المصرف لحساب شركة هولندية.

وذكر المصرف في طلبه أن البيع قد تم في شهر أيلول السابق. ولما كانت هولندا قد سقطت بعد ذلك، وجهت وزارة المالية الأسئلة التالية الى الشركة: ما سبب هذا التأخير العجيب في نقل ملكية الأسهم؟ ومن هم أصحاب الشركة الهولندية؟ ومن هو المشتري السويسري؟ . .

لم يشق على الشركة أن تجيب على أسئلة سهلة كهذه: «فالمكاتبات السابقة الخاصة بنقل الملكية قد فقدت في البريد، وهي لا تعلم شيئاً عن الشركة الهولندية وأن قوانين المصارف السويسرية تحول دون حصولها على بيانات المشتري السويسري». ومع ذلك ثبت من التحقيق الذي قام به المصرف، أن الطلب الذي جاءه لم يحمله اليه البريد، بل سلمه اليه شخص يسمى الدكتور «دويسبرج» وهو محام بنيويورك يقول أنه تلقى الطلب من مصرف سويسري. وثبت أن الدكتور «دويسبرج» هو ابن الكيمائية الأول لأكبر مؤسسة كيميائية في ألمانيا، ألا وهي «شركة فارين» كما تبين أن رئيس شركة الانيلين - مع أنه أمريكي الجنس - هو أخ الاستاذ الأكبر «هرمان شمتز» رئيس «شركة فارين».

واتضح من موالاة التحقيق أن شركة الانيلين استمرت تدفع أرباح تلك الأسهم الى الشركة الهولندية برغم انتقال الأسهم بالبيع المزعوم. ثم دلت التقارير الواردة من «وال ستريت» الحي المالي في نيويورك، على أنه حين أدمجت الشركات المتفرقة بعضها في بعض، ووجدت في شركة واحدة باسم «الشركة العامة للانيلين والأفلام» قامت «شركة فارين» بشراء أسهمها الموجودة في الخارج على يد مصرف سويسري . .

ويلوح أن قرار وزارة المالية بوقف انتقال الملكية للأسهم أثار ثائرة مديري شركة الانيلين اثاره لم تعهد من قبل. والظاهر أنهم كانوا يرون فض المسألة كلها بدون تأخير أمراً حيوياً، فإن مديري الشركة والمحامين أسرعوا الى واشنطن، وطلب المشتري من وزير سويسرا المفوض أن يتدخل في الأمر، ففعل. ويبدو أن حكومته أبلغته أن المشتري السويسري خاضع لسلطات سويسرا ولكن وزارة المالية ظلت مع ذلك تماطلهم . .

وفي ليلة ١١ ديسمبر ١٩٤١، أي بعد الهجوم على «بيرل هاربور» بأربعة أيام، استقلت نخبة من رجال وزارة المالية الطائرة الليلية من واشنطن الى نيويورك وخرج تلك الليلة مئات من موظفي «مراقبة الاعتمادات الخارجية» في مهمات مشابهة في طول البلاد وعرضها. وكانت المهمة الموكولة الى ركاب هذه الطائرة أن يضعوا يدهم على «الشركة العامة للانيلين والأفلام»، لأنها في أكبر الظن هي العدو الأول . .

وأدى التحقيق الذي دام عدة أشهر الى الوقوف على معلومات مثيرة للدهشة. فقد وردت من سويسرا تقارير سرية تفيد أن مديري الشركة السويسرية التي اشترت الأسهم كانوا ستاراً يخفي النازيين، وأن مديري شركة الانيلين كانوا على علم بذلك، وأنهم هم أنفسهم من عملاء الالمان.

ووردت من لندن شهادة من الانجليز، وأيدتها لجنة الهند الهولندية، بأن «شركة فارين» أصبحت منذ سنة ١٩٣٦ أداة في يد النازي، وأنها أسست في الخفاء دولة كيميائية يمتد سلطانها في أرجاء العالم كله، وذلك بشرائها

في بلاد أخرى كثيرة الأسهم في شركات تبدو عليها في الظاهر سمة الاستقلال، وأن هذه الشركات التوابع كانت تهيأ باستمرار للتجسس . .

وفحص رجال وزارة المالية عقود استخدام موظفي شركة الانيلين في مركز إدارتها بنيويورك، فوجدوا أنهم كانوا جميعاً يطلبون السفر الى المانيا لقضاء اجازاتهم. وأن مئات من المواطنين الألمان يعملون في مصانع الشركة، وأن عدداً من صغار المستخدمين وظفوا بتوصية من هيئات نازية في نيويورك وبرلين، وأن رئيس العمال في مصنع الشركة بنيوجرسي عينته الرابطة زعيماً للمنطقة الشرقية كلها. لولم تخل الشركات التوابع كلها من ألمان مختصين في الكيمياء والصناعة استقدمتهم الشركة بعد أن قررت للحكومة وأقسمت أنهم لازمون لها كل اللزوم. ومما زاد في الهلع أن أثبتت السجلات أن أعمال الشركة تضمنت قيامها بخدمات سرية في أحواض البواخر الحربية والمطارات، وأنها أدرجت بين الأعمال التي تتولاها استخراج صور من الأفلام والرسوم الهندسية المخططة على الورق الأزرق. وهذه المستندات تحتوي على قدر كاف من المعلومات السرية يريد به العدو فجيرة أخرى كفجيرة بيرل هاربور. .

وفي الأسبوع نفسه تمكن رجال وزارة المالية من اصطيد «شركة شميكو»، وأوقعوها في حبالهم. وتبين من سجلاتها وجود لجنة في «شركة فارين» لجمع المعلومات السياسية والاقتصادية، وهي على صلة بالحكومة النازية، ولها مركز رئيسي في برلين. كما أثبتت الملفات أن هذا المركز الرئيسي كان يتلقى منذ سنين طويلة بيانات كاملة عن الولايات المتحدة. مصانعها، ومخترعاتها وإنتاجها وخاماتها. وكانت ترسل لألمانيا تقارير أسبوعية لا تستند الى المعلومات المستقاة من تحريات الأفراد فحسب، بل تستند أيضاً الى تلخيص واف للمجلات العلمية الفنية، ونشرات الأنباء، وبلغت نفقات هذه التقارير ٢٤٠ ألف دولار. هذا بالإضافة الى ما وجد في هذه الشركة من خرائط طبوغرافية عن سواحل أمريكا وموانئها، وخرائط عن جزر الهند الغربية

ومداخل قناة بناما. وتبين أن «شركة شمينكو» جائزة في وسائل انتاجها الكيميائي على حق استعمال ثلاثة آلاف امتياز مسجل باسم «شركة فارين». وكان من بين الذين نالوا حق الانتفاع بهذه الوسائل المسجلة مئات من أهم المصانع الأمريكية. وبفضل هذه العلاقات القائمة تمكنت «شمينكو» من أن تحصل لكثيرين من رؤساء نازيين وكيميائيين وموظفين على اجازة بدخول أهم المصانع الأمريكية، من مصانع الالمنيوم والمطاط الى مصانع بناء الطائرات. وحتى يوم كان السلاح الجوي الالماني مسيطراً على بولندا، اتبعت الحيلة نفسها في إدخال «كلود دورنيه» وهو ابن أبرع مهندسي الطيران في المانيا، الى مصانع طائرات شركة ساحل الباسفيك. .

وكان من بين ما حصلت عليه شبكة رجال وزارة المالية الأميركية، مذكرات محام سابق «لشركة شمينكو»، فإذا بها تدون بأمانة كل ما جرى من مناقشات في المانيا. وترى كيف أن حكومتها هي التي اقترحت أن تؤسس في أميركا شركة كالشركة العامة للانيلين تسيطر عليها «شركة فارين» بأن تشتري بواسطة مصرف سويسري ما قيمته ١٠ ملايين دولار من أسهمها. وأن الدكتور «شمتز» مدير «شركة الانيلين»، الى يوم أن بدأ تحقيق وزارة المالية كان من قبل مديراً «لشركة شمينكو». .

وظلت شركة فارين سنين طويلة وهي تحتفظ بملكية أسهم شركة الانيلين وراء ستار من بيوتات مالية غامضة في هولندا وسويسرا. وفي سنة ١٩٤٠ أراد ممثلو شركة فارين المسيطرون على شركة الانيلين، أن يخلصوا أسهمهم الموجودة في هولندا من قرار تجميد أموال البلاد المحتلة. فزوروا عقداً بتاريخ سابق يتضمن بيع تلك الأسهم من ستارهم الهولندي الى ستارهم السويسري، وبذلك يمكن الاحتجاج بأن هذه الأسهم هي ملك أناس ينتمون الى دولة محايدة، ثم يعاد بيع تلك الأسهم الى موظفي النازي المخلصين المقيمين في أمريكا. وحينئذ تصبح الأموال الأمريكية سلاحاً مسلواً في يد شركة فارين. وتترأى شركة الانيلين كأنها شركة لا نزاع في جنسيتها

الامريكية . وفي الوقت نفسه تتمثل فيها دولة موطدة الدعائم ديدنها التجسس والتخريب .

وسرعان ما انتهك الستر، اذ نطق بالحق موظف سابق في شركة الانيلين من الأمناء على أسرارها، واعترف بأن الشركة كانت هي وتوابعها في حيازة شركة فارين . وأن صفقة بيع الأسهم كانت أهون عناصر المؤامرة . وأن شركة الانيلين لم تقتصر في تجسسها على ارسال التقارير الأسبوعية الى المانيا منذ عام ١٩٣٦ ، بل لم تزل ترسل اليها بصورة خفية . .

كانت هذه التقارير تشمل أفلاماً مأخوذة للعتاد الحربي السري في أميركا، ورسوماً هندسية، وأفلاماً مصغرة، ومعلومات عن بناء أحدث المستودعات الحربية الأمريكية وانتاجها . وكانت شركة «اجفا انسكو»، وهي من الشركات التوابع، تباع الهواة أفلام التصوير السينمائي على شريطة أن تقوم هي بتحميزها . ولما كان من بين عملائها رجال في الجيش والاسطول، وكانت تسلم الأفلام لتحميزها قبل أن تعرض على الرقابة، لم يبق هناك مانع يمنعها من إرسال صور هذه الأفلام الى برلين . اضافة لذلك، فقد وجد تقرير كامل عن أحدث البوارج الحربية مصوراً على فيلم عرضه ٣٥ ملم، معداً للإرسال فوراً . تلك هي الجاسوسية الراقية ولا شك . .

ذلك هو الصراع بين الجبابرة، كما هو بين الأبالسة . ولم يهدأ هذا الصراع طالما أن الأرض يسكنها مخلوق عجيب هو: الانسان . ولا مجال للعجب والدهشة من أي فن جديد قد يأتي في المستقبل، حتى ولو كان «معجزة العصر» . . .

خفايا وأسرار الحرب العالمية الثانية

التاريخ البشري حافل بالكوارث كما بالجرائم والمذابح . وطبيعي أنه ليس من جريمة إلا ووراؤها سر كبير ولغز خفي . فكيف الحال بجريمة من أكبر جرائم القرن العشرين، تلك التي يطلق عليها اسم «الحرب العالمية الثانية»؟ وعندما كانت الحرب امتداداً لسياسة الدول، فقد مثلت الحرب العالمية الثانية حرباً سياسية بالدرجة الأولى لقاء هدف سياسي وبناء على قرار سياسي أيضاً، وقد ولى الزمن الذي كان فيه نشاط القادة العسكريين يمارس أساساً في ميدان المعركة .

وهكذا يصبح من الطبيعي والمنطقي أن تزخر الحرب العالمية الثانية بكثير من الخفايا والأسرار والألغاز، وخصوصاً على صعيد بريطانيا والمانيا، حيث أن ونستون تشرشل الصهيوني عندما سئل عن رأيه في معاهدة فرساي التي وقعت ضد المانيا، أجاب: «انها ليست معاهدة، بل هي هدنة مدتها عشرون سنة» وبعد عشرين سنة بالضبط اندلعت الحرب العالمية الثانية فعلاً .

فما هي أسرار هذه الحرب؟ وما هي ألغازها على الصعيد البريطاني والالمانى تحديداً؟ .

عندما تتالت الأحداث على انكلترا بعد الحرب العالمية الأولى، أدركت نخبة واعية من رجالات بريطانيا أن هناك قوى خفية تتلاعب بمصير أوروبا والعالم من وراء الستار، وتوجه الأحداث والأشخاص تبعاً لمخططات مكتوبة عميقة الأهداف بعيدة المرامي .

وكان على رأس هذه الشخصيات الانكليزية التي أدركت حقيقة

المؤامرة الأميرال سير «باري دو مفيل» والكولونيل «هـ. رامزي». وقد شغل الأميرال دو مفيل عدة مناصب رفيعة في البحرية البريطانية خلال أربعين عاماً متوالية، اشتهر خلالها كمدير لكلية البحرية الملكية، ثم استلم منصب قائد ميخبرات البحرية خلال أعوام طويلة... ولا ريب في أن المعلومات الخطيرة التي اطلع عليها بحكم منصبه هذا هي التي أطلعتة على حقيقة ما يجري وراء الستار، ولا سيما أنه مثل انكلترا في مؤتمرات بحرية كثيرة. أما الكولونيل رامزي فإنه خريج كلية «ايتون» الشهيرة وأكاديمية «ساند هورست» العسكرية، وقد خدم كقائد في صفوف الحرس الملكي البريطاني خلال الحرب الأولى، ثم نقل الى قيادة الجيش البريطاني... فدخل المعترك السياسي بعد ذلك، فانتخب نائباً في مجلس العموم عام ١٩٣١ وظل محتفظاً بمقعده في البرلمان حتى عام ١٩٤٠، حيث اعتزل الحياة السياسية. وهكذا كانت هاتين الشخصيتين في طليعة من أدركوا حقيقة الخطر الذي تمثله الحركة الصهيونية والمرابون العالميون اليهود، وجعلوا هدفهم تنبيه الحكومة الانكليزية الى هذا الخطر.

وعندما تولى «نيفيل تشامبرلين» رئاسة الوزارة في بريطانيا، أخذ الأميرال «دو مفيل»... والكولونيل «رامزي» على عاتقهما شرح الأحداث له وتنبيهه الى الخطر، والى أن المرابين العالميين يعملون على إشعال نار الحرب بين انكلترا والمانيا، كما بيّنا له أهداف هؤلاء من الحرب... وكانا بحاجة الى الدليل القطعي لإقناع المستر تشامبرلين بهذه الحقائق. بيد أنهما استطاعا تنبيهه الى مكن الخطر... وهكذا اتخذت حكومته موقفاً حذراً إزاء أزمات السياسة العالمية رافضة الانصياع لرغبات المرابين العالميين... وكان تشامبرلين مدركاً لخبث معاهدة فرساي ومدى ما تضمنته من تعسف ومظالم... وهذا ما جعله يفضل معالجة القضايا الناجمة عنها بالتريث... فكان من نتيجة ذلك أن جبهة المرابين العالميين أخذت تنظر اليه شيئاً فشيئاً نظرتها الى الخصم الذي يجب أن يزاح من الطريق...

وعندما ثارت أزمة (السوديت) بسبب إقدام هتلر على احتلال هذه المنطقة التي اقتطعتها معاهدة فرساي من ألمانيا وضممتها إلى تشيكوسلوفاكيا، لم يلجأ تشامبرلين إلى إعلان الحرب، بل فضل الدعوة إلى مؤتمر لمعالجة هذا الموضوع، لا سيما وأن المعلومات التي بسطها له الأميرال «دو مفيل» والكولونيل «رامزي»، زودته بالحدس اللازم تجاه مآرب زعماء الصهيونية... ولم يكن هتلر من ناحيته أقل رغبة من مسالمة بريطانيا... ربما لعدم استكمالها بعد ما يلزم للحرب - وقد كان مصراً على رفع جميع المظالم التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا ومسح جميع نتائج هذه المعاهدة المشؤومة... وقد انعقد المؤتمر في ميونيخ وتكلل بالنجاح في تجنب الحرب في اللحظة الأخيرة... وعاد تشامبرلين إلى انكلترا يرف إلى بلاده بشرى السلم، باعتبار أن هذه الاتفاقية أبعدت شبح الحرب وحفظت السلام العالمي.

أدرك زعماء الصهيونية بعد أن خابت خطتهم بسبب موقف تشامبرلين، أنهم لن ينجحوا في إثارة الحرب إلا بإرغامه على ذلك أو بإزاحته عن الطريق. كما أدركوا أنه يتحول شيئاً فشيئاً إلى خصم لهم... وهكذا أوعزوا إلى أجهزتهم ومنظماتهم ببدء المعركة ضد تشامبرلين التي مثلت فيها أجهزة اعلامهم ودعايتهم السلاح الأول، متهمة إياه بالتراخي والانصياع لهتلر بل وحتى الميل إلى الفاشية.

وكان الأميرال دو مفيل والكولونيل رامزي يبدلان أقصى الجهد بحثاً عن البراهين المادية التي يستطيعان وضعها تحت عيني رئيس الوزارة لإقناعه نهائياً بماهية الخطر الذي يتلمسه تلمساً... وأسعفهما الحظ أخيراً بشخص المستر «تايلر كنت» الضابط الأميركي الذي كان مكلفاً بتلقي وإرسال البرقيات بالشفرة السرية في السفارة الأميركية في لندن ومساعدته السيدة «آنا وولكوف»، حيث كان هذان بحكم عملهما يطلعان على المعلومات الخطيرة التي تتضمنها الوثائق السرية التي تمر بالسفارة. وأدركا نتيجة لهذه المعلومات

أن الحرب على الأبواب دون أن يدرك أحد ذلك، ودون أن تكون لأي شعب من الشعوب مصلحة في مجزرة شاملة كهذه. . . وثار ضميرهما عندما علما أن مدبري هذه الحرب والمستفيدين منها هم تلك العصابة العالمية المرتبطة سراً مع مجموعة أرباب المال العالميين اليهود. فأخذوا يفكران جدياً بالقيام بعمل ما لمحاولة منع هذه الحرب. وقد استقيا المعلومات الرئيسية من سلسلة البرقيات المتبادلة بين تشرشل وبين الرئيس الأميركي روزفلت (وكلاهما عريق في صهيونيته) والتي كشفت لهما القناع دون موارد عن أشخاص وأهداف زعماء اليهودية العالمية الذين يسيطرون سراً على مقاليد الأمور ويوجهون التعليمات والإرشادات إلى تشرشل وروزفلت ذاتهما.

وكان «تايلر كنت» يعلم أن رامزي والأميرال دو مفيل يمثلان تلك النخبة من الشخصيات الانكليزية التي تعمل على محاربة زعماء اليهودية العالمية وتجنيب العالم الحرب. وهكذا اتجه أخيراً لمقابلة «رامزي» الذي عرض عليه أن يأتيه بالوثائق الأصلية لمشاهدتها في منزله الواقع في (رقم ٤٧ ساحة غلوستر) في لندن. وقد حصل رامزي على نسخة من هذه الوثائق وعرضها على المستر تشامبرلين الذي أدرك نهائياً حقيقة المنزلق الذي يسير عليه العالم. . . .

أما في ألمانيا فكان الصراع المكتوم - على حد تعبير المؤرخ وليام كار - يدور بين هتلر والنازيين المتطرفين الذين يمثلون الطبقة العسكرية الألمانية، وذلك بالرغم من اندماج هتلر بهم بصورة كاملة منذ عام ١٩٣٦. فقد كان هتلر لا يزال يؤمن في أعماق تفكيره بوجوب الاتفاق مع بريطانيا والغرب سلمياً، وتحديد أهدافه بتحقيق مطالب ألمانيا ولا سيما إزالة جميع آثار معاهدة فرساي. أما النازيون المتطرفون فكانوا يعتزمون السير معه في هذه المرحلة حتى نهايتها ثم التخلي عنه بعد ذلك أو إجباره على المضي في تحقيق أهدافهم الرامية إلى فرض سيطرة العرق الجرمانى على العالم بالقوة.

وكان هتلر مقتنعاً من ناحية أخرى منذ اجتماعه بتشامبرلين بأن رئيس

الوزراء الانكليزي مدرك لحقيقة خطر اليهودية العالمية، ومخلص في اعتزامه عدم الانصياع لرغبات المراهبين العالميين، فجعله هذا يحاول جهده في تفادي الصدام مع انكلترا . .

وازداد التوتر بصورة عنيفة عبر تغذية الاعلام والدعاية الصهيونية . . . وكذلك ضغط النازيون في المانيا بحيث أصبح الصدام أمراً حتمياً. واندلعت الحرب أخيراً في الأول من سبتمبر ١٩٣٩ حين اجتاحت الجيوش الالمانية بولونيا . . . وكان المراهبون العالميون وزعماء اليهودية العالمية يعلمون أنهم يغامرون بمصيرهم في أكبر لعبة لعبوها في تاريخ مؤامراتهم، وأن تفادي الحرب يعني بصورة حتمية أيضاً أن يطالهم ساعد النازية التي منحوها هم القوة الضاربة . . . واندفعت الجيوش الالمانية كالعاصفة فاحتلت بولونيا ثم اكتسحت فرنسا وأوروبا الغربية. وكانت فرق الدبابات الالمانية الشهيرة - البانزرز - قادرة على إلقاء الجيش البريطاني في البحر أو إجباره على الاستسلام حين صدر اليها أمر من هتلر يوم ٢٢ مايو ١٩٤٠ بالتوقف. وكان نص البرقية التي تلقاها الجنرال «فون كلايست» قائد الفرقة المدرعة كما يلي: «على جميع الفرق المدرعة التوقف حالاً على مسافة معتدلة من مرمى المدفعية في مدينة دنكرك . . . يسمح بتحركات دفاعية واستطلاعية». كاد يجن جنون الجنرال «فون كلايست» الذي كانت قواته قادرة على سحق الجيش الانكليزي بصورة نهائية حين صدر اليه هذا الأمر العجيب بالتوقف . . . ولم يلبث أن وصلت برقية ثانية أشد غرابة تأمره بالانسحاب الى ما وراء خط القتال القريب من المدينة بعد أن عبرته الدبابات الالمانية بالقوة . . . والتوقف لمدة ثلاثة أيام . . .

ينقل الكابتن «ليدل هارت» أحد ضباط أركان الجنرال «فون كلايست» في كتابه الذي ألفه فيما بعد باسم (الطرف الآخر للهضبة) ما جرى في المقابلة التي تمت بعد ذلك بين هتلر والفيلد مارشال «فون رونشيتد» القائد الأعلى للقوات الالمانية، مصحوباً بالجنرال «فون كلايست» وقد جاء

للإحتجاج على هذه الأوامر المستغربة، فقد فوجيء القائدان الالمانيان بأشد من مفاجأتها الأولى حين استمعا الى أقوال الفوهرر الذي أخبرهما بأنه أصدر أوامره هذه خصيصاً للسماح للجيش البريطاني بالانسحاب محتفظاً بقواه وسمعته العسكرية، وذلك لأنه يعتقد بضرورة بقاء الامبراطورية البريطانية؛ وأملاً منه في الوصول عن هذا الطريق الى عقد صلح مع لندن تنتهي به الحرب حالاً على أساس اعتراف بريطانيا بمكتسبات المانيا. هذا بالإضافة الى امتناع الطيران الالماني عن قصف بريطانيا بالقنابل طيلة الأشهر الأولى للحرب، وبصورة أدق طيلة فترة وجود تشامبرلين على رأس الحكومة البريطانية، مقابل امتناع بريطانيا عن ضرب أية أهداف أخرى سوى الأهداف العسكرية فقط حسب ما أعلنه تشامبرلين يوم ٢ سبتمبر ١٩٣٩، وهذا يعني تفادي الغارات على المدنيين والمدن الآمنة.

إزاء هذا الوضع اشتدت حملة الدعاية والتشهير في انكلترا ضد تشامبرلين، ترافقها حملة ضغط شديدة حتى اضطر الى الاستقالة بصورة شبيهة باستقالة اللورد «اسكويث» في الحرب العالمية الأولى، وخلفه في رئاسة الوزراء نفس الوجه الذي كان أحد من خلفوا اسكويث عام ١٩١٦ وهو ونستون تشرشل...

وفي اليوم الذي صعد فيه الى الحكم في ١١ مايو ١٩٤٠ أصدر أمره الى الطائرات البريطانية بالإغارة على المدن الالمانية للمرة الأولى فاتحاً بذلك الباب لقصف السكان المدنيين في المدن وفي العالم كله..

كان هذا جل ما يتمناه النازيون الذين أذهلتهم الانتصارات الساخنة التي أحرزها الجيش الالماني خلال السنة الأولى للحرب، وعقدوا في مايو ١٩٤١ اجتماعاً عاماً قيادياً قرروا فيه الإفادة من سياسة هتلر الميالة لإنكلترا لتعديل مجرى الحرب، وذلك عن طريق إرسال مبعوث شخصي لهم الى انكلترا لإقناع حكومتها بعقد الصلح مع المانيا والوقوف على الحياد بهدف تمكين الجيوش الالمانية من اجتياح الاتحاد السوفياتي والقضاء على أول دولة

اشتراكية في العالم . . . وقد وقع اختيارهم على شخصية بارزة هي «رودولف هس» الذي كان يعتبر الساعد الايمن لهتلر ليكون مبعوثهم الى انكلترا . . .

وقد ذهل العالم كله آنئذ حين سمع نبأ وصول «هس» الى بريطانيا بالطائرة، حيث اجتمع الى تشرشل بحضور اللورد هاميلتون، لكن تشرشل رفض عرض النازيين. عندها كان إعلان الحرب على الاتحاد السوفياتي حيث اقتحمته الجيوش الالمانية يوم ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٤١ .

وقد أصبحت الحرب عالمية عندئذ واكتمل طابعها الشامل بإعلان روزفلت الحرب على ألمانيا. وأصبح تشرشل رجل الحلفاء الأول ورجل بريطانيا القوي . . . وكان أول ما عمد اليه، القبض على جميع أخصامه السياسيين وإيداعهم السجون لفترات غير محدّدة استمر بعضها حتى نهاية الحرب. وقد اعتبر من خصومه كل من عرف بعدائه لليهودية العالمية أو للصهيونية، وكل من حاول منع وقوع الحرب. وكان من بين من اعتقلهم، الأدميرال دو مفيل والكولونيل رامزي. وزوجتيهما وعدد من أصدقائهما ومئات من المواطنين الآخرين، وذلك بتهمة التعاون مع الالمان كونهم طابوراً خامساً تابعاً لهتلر . . . وقد حاول هؤلاء تليفق مثل هذه التهمة لـ «ليدي نيكولسون» زوجة الأدميرال نيكولسون أحد كبار قادة البحر البريطانيين السابقين، ولكن القضاء البريطاني برأها دون أن تنجو من حملة الاعتقالات هذه .

وقد صدرت أوامر الاعتقال هذه جميعها باسم «هربرت موريسون» وزير الداخلية في حكومة تشرشل. وقد عاد موريسون عام ١٩٥٤ فظهر ثانية بوجهه الحقيقي في كندا حين تزعم حملة جمع تبرعات لمساعدة الصهيونية . . . وهكذا يبدو الارتباط واضحاً بين حكومة تشرشل وزعماء اليهودية العالمية . . .

لم يخمد السجن صوت قائد كالأدميرال دو مفيل. فلم يكذب يخرج من سجنه حتى نشر كتابه الشهير «من أميرال الى البحار الناشئ» الذي كشف فيه سر الأحداث التي قادت الى الحرب العالمية الثانية، وحذر فيها الشعب الانكليزي .

ثم تبعه الكولونيل رامزي فألف كتابه «حرب دون اسم» وتمكن هذان الكتابان بالرغم من اختفائهما من الأسواق، من فضح بعض أسرار المؤامرة الصهيونية للرأي العام الانكليزي والأوروبي . . .

لقد توفي رئيس الوزراء الانكليزي الأسبق نيفيل تشامبرلين وهو متألم، اذ رأى بلاده تساق الى مجزرة شاملة للدفاع عن مصالح ومآرب حفنة من المرايين اليهود. . . وتابعته حملة التشهير التي شنتها عليه الصحافة التابعة لهؤلاء المجرمين حتى يوم وفاته. . . بل هي لا تزال تتابعه حتى الآن في كتب التاريخ التي تصفه بالضعف والخوف من هتلر، بينما لا يزال «السير ونستون تشرشل» حتى الآن مغموراً في الأمجاد وفي بحبوحة الثراء، تلاحقه أكاليل المدح أينما ذهب. . .

ولكن الحقيقة في النهاية هي أن الانسان لن يصحب معه الى القبر شيئاً من كنوز الدنيا أو من أكاليل الثناء والتمجيد. كما أن القبر ليس النهاية بل إنه الطريق الذي لا مناص منه ولا مفر بعد القبر من تقديم الحساب أخيراً حيث لا حول ولا طول للمرايين العالميين وحيث سيلقى كل انسان جزاء ما قدمت يداه.

المراجع

- ١ - وليام كار «اليهود وراء كل جريمة». شرح وتعليق خيرالله الطلفاح. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٣٠ - ٢٣١ و ٢٣٧ - ٢٤٤.
- ٢ - باسيل دقاق «رودولف هيس، الحلقة المفقودة من تاريخ الرايخ». دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٢.
- ٣ - وليام غاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج». ترجمة دار النفائس. بيروت.

ممر حلفاية وأسرار قائده الناري في ممر الجحيم

ما أعظم القائد الحكيم وما أكبر قيادته في تاريخ الشعوب والأوطان، وكم كان مصيباً في قوله، فريدريك الأكبر، حين قال: «لا يحتاج القائد الناجح الى أن يكون قديراً فحسب، بل يجب أن يحالفه الحظ أيضاً». هو واحد من هؤلاء لقبه جنوده بالشيطان المراوغ، والقس. وأطلق عليه أعداؤه البريطانيون لقب «القس الناري». إنه الرائد الالمانى «باخ» بطل معارك ممر حلفاية، والمحافظ عليه حتى بعد استيلاء البريطانيين على المنطقة المحيطة به. ولم يسقط الممر إلا بالجوع والعطش وليس بالقتال.

لا يمكن للإنسان أن ينام جيداً بملابسه كاملة. فذلك مثير للأعصاب، وخصوصاً اذا كانت هناك براغيث ترعى. لقد وشم الرقيب «أهراردت» من أعلى رأسه الى أخمص قدميه من لسعاتها المؤلمة. الجنود في حاجة الى الراحة، وهذه البراغيث الدقيقة جعلتهم أقرب الى الجنون... فالمقاتل الصلب يقف عاجزاً أمام هذه المخلوقات الصغيرة المؤذية، ولا يدري كيف يقاومها. ولسوء الحظ فليس لها رؤوس كبيرة مثل الثيران حتى يطلق عليها الرصاص. ولم تكن البراغيث وحدها هي التي تثير انفعال الجنود. كانت هناك الاشاعات أيضاً. ذلك الطنين الذي انتشر في كل مكان. لقد جاء الرقيب «براندل» بإشاعة جديدة الى الوادي: «عند البريطانيين دبابة جديدة تقف أمامها المقذوفات المضادة للدبابات كأنها لسعات البراغيث، تدعى ماركة ٢». لم يشاهد أحد منهم واحدة بعد، ورغم ذلك كان الجميع يعدّون.

معجزات هذه الدبابة البريطانية . . . وبالتدريج أخذ رعب «ماركة ٢» يتمكن من النفوس، وبقي الجنود في حال الطوارئ منتظرين فترة طويلة، والانتظار يثير الأعصاب كذلك. خلال نيسان/ابريل من العام ١٩٤١، اتخذت الوحدات المتقدمة من الفرقة الخامسة الألمانية الخفيفة مواقعها في ممر حلفاية - ذي الأهمية الاستراتيجية - على الحدود المصرية - الليبية. بذلك أمكن للألمان الحصول على مراكز متقدمة أمام جبهة السلم . . . وكان على الانجليز لتخفيف الضغط على قواتهم، أن يستولوا على ممر حلفاية أولاً. وفي منتصف أيار /مايو/ وعلى وجه التحديد بين يومي ١٥ و١٧، هاجم الجنرال ويفل الممر بقوات من لواء الحرس الثاني والعشرين وطرده سرايا اللواء ١٥ مشاة المحملة، وبطارية مدفعية إيطالية، من مواقعها في الممر، وأسر الحامية الألمانية بأكملها، عدا ١٢ رجلاً، لكنه لم يحقق أهدافه الأخرى. فبعد احتلال قواته للسلم وكابوتزو، تمكن الألمان من استردادها، بعد هجوم مضاد دموي، قامت به مجموعة قتال «هرف».

وفي ٢٦ أيار /مايو/، صدرت الأوامر لمجموعة قتال «هرف» باحتلال ممر حلفاية. ما أسهل على ما يبدو تنفيذ هذا الأمر. . . وخصوصاً على الخريطة. . . يتقدم الآلاي الثامن البانزر بقيادة العقيد كرامر، من السلم جنوباً عبر الصحراء، ثم يغير اتجاهه إلى الشمال، ويهاجم المدافعين البريطانيين عن الممر من الخلف. يعاون مدرعات الآلاي البانزر في الهجوم، كل من مدفعية الآلاي ٣٣ بانزر الثقيلة، والكتيبة الأولى من الآلاي ١٠٤ مدفعية الممر، بالمواجهة سيراً على الأقدام.

يقوم بهجوم مضاد في الجنوب والجنوب الشرقي - لجذب انتباه البريطانيين عن الممر - الآلاي الخامس بانزر، مع بطارية مدفعية وخمسة مدافع ٨٨ ملم ووحدات من المدفعية الإيطالية، تتقدم من منطقة تجمعها غربي كابوتزو. قتل قائد الكتيبة الأولى من الآلاي ١٠٤ مدفعية، في اليوم التالي للخدمة في أفريقيا، في معركة أمام دفاعات طبرق، وحل محله الكابتن

«ولهم باخ»، الذي كان يصفه الجنود بالشیطان المراوغ، ويصفه ضباط الصف بالقس. ولم تكن كلمة قس كنية، فقد كان قائدهم الجديد ضابطاً احتياطياً، وكان قبلها قسيساً وراعياً للكنيسة الانجليكية في مانهايم. وحين قدم «فريدل شميدت» نفسه اليه، فوجيء بلطفه الزائد. فقد كان يبدو أبعد ما يكون عن الصورة التي كانت مرتسمة عنه في مخيلته، صورة الرجل العسكري الصارم، اذ كان ودوداً فاضلاً نبلاً، في حوالي الخمسين من عمره، تزيد قامته، عن الستة أقدام، وله شارب. قابل الملازم بلطف، وانحنى له، وقال: «حسناً. لقد وصلت سالماً الى هنا يا صديقي». كان يتكلم وهو يدخن سيكاره بشغف، ويميل برأسه قليلاً مع كل نفحة دخان. واستطرد «حسناً يا صديقي. أرجو أن تجد المتعة والهناء في وجودك معنا».

لم يسبق للملازم شميدت أن سمع في كل خدمته العسكرية أن ضابطاً أقدم تمنى للأحداث متعة وهناء، وخصوصاً في وقت الحرب، وفي ممر حلفاية بالذات. . . ولكن كان هذا هو القس باخ.

ضرب هذا القس المثل الرائع للجنودية الحققة في تاريخ الحملة الأفريقية، فلم يعط أمراً قط، لم يكن مستعداً لتنفيذه بنفسه. لذلك أحبه جنوده، وقلما كان القائد محبوباً من جنوده. أما البريطانيون، فقد استمروا في الاشادة بحميد خصاله حتى لقبته الجرائد الانكليزية «ببطل ممر حلفاية» و«بالقس الناري».

كانت كتيبته مختبئة في خنادقها في وادي القلال، ودرجة الحرارة قد وصلت الى ٩٩ درجة فهرنهايت في الظل، لم يكن أحد يجروء على الزحف في الوادي، فمجرد أن يرفع أحدهم رأسه، كانت طلقات الرصاص تتطاير حول خوذته الفولاذية، كالمطر المنهمر، كما أخذت المدافع البريطانية ٧٥ ملم، تطلق نيرانها من فترة الى أخرى، دون أن يدري أحد من أين تطلق هذه المدافع. وهنا تحرك «باخ» في الوادي بحذر، واتخذ لنفسه موقعاً على حافته، ونظارة الميدان على عينيه. انفجرت النيران فوق رأسه، وصفرت

الطلقات، ولكنه تمكن من اتخاذ سائر له، في الوقت المناسب، وحدد تماماً مكان المدفع البريطاني، وأرسل المعلومات الى بطارية المدفعية، وفي ربع ساعة سكت المدفع المخيف. وتهامس الجنود «هل رأيتم ما فعل الرجل العجوز؟» وأحنوا رؤوسهم الى الأرض، ولكنهم تقدموا للهجوم عندما رفع الرجل العجوز يده بالإشارة. ونجح الهجوم، وأخلى الحرس البريطاني الممر. وهكذا أصبح ممر حلفاية، مرة أخرى، في يد الألمان.

ابتدأ الهجوم البريطاني في العملية «باتل اكس». وهدرت الدبابات في الرابعة بالضبط من يوم ١٥ حزيران /يونيو/ ١٩٤١. تلك الدبابات الجديدة ماركة ٢ التي وصلت الى الجبهة مجملة على ناقلات دبابات خاصة. ودبابات المشاة الضخمة ماتيلدة ماركة ٢ أيضاً.

استمر المهندسون الألمان لمدة أربعة عشر يوماً يحصّنون ممر حلفاية، الذي استولوا عليه بعد عناء شديد. وكانوا سعياء للنتائج التي حصلوا عليها من مجهودهم. ومن العجيب أن هناك أشياء تسبب السرور في الحرب... ويعلم الله أن المدفع ٨٨ ملم الموجود في الدشمة - مما لا يسهل إخفاؤه - قد اختفى جيداً وبنجاح. ابتعد الملازم «رشتير» لمسافة ١٥٠ ياردة من المدفع، واستلقى على بطنه، لمعرفة مدى إخفاء المدفع وتمويهه، ولم يكن هناك أثر حتى للدشمة، ظاهر للعيان. وهناك سبب آخر، فسراب الصحراء الدائم يخفي كل شيء حتى ارتفاع ثلاثة أقدام، وكل ما هو أعلى من هذا الارتفاع، يظهر أكبر من حقيقته.

دق جرس تلفون الميدان في مساء ١٤ حزيران /يونيو/، وكان المتكلم هو الكابتن باخ.. قال بهدوء: «هناك ما يشير الى وجود شيء في الجو الليلة أو في صباح الغد الباكر، ولكنكم مقاتلون قدامى محنكون، ولديكم جماعة مهندسين قديرة». ثم قال للملازم شميدت. «لك عندي مهمة خاصة... ستكون احتياطي مهندسين، فإذا اخترق انجليزي أي مكان تطرده منه فوراً... كانت مهمة بسيطة للغاية... إذا اخترق جندي انجليزي مكاناً اطرده

فوراً. يا لها من مهمة واضحة وجلية تماماً. لا شيء يمكن أن يكون أوضح من ذلك. . إنها تبدو وكأنها وصفة في كتاب طهي. ضع هذا على ذاك، فتكون الكعكة معدة. . . وفي المساء أغلق المهندسون الثغرة، التي كانت في حقل الألغام بين السرية الثالثة وجماعة المدفع المضاد للدبابات، وضوعفت الحراسة، وأرسلت الدوريات الى الخارج، وكان كل جندي متيقظاً في خندقه. في الساعة ٢١,٥٧، سمع صوت المذيع من محطة الاذاعة العسكرية الألمانية في بلغراد. ثم أغنية «ليلي مرلين». استمع الجنود لهذه الأنغام العذبة من أجهزة الاستقبال، في عرباتهم ودباباتهم. فقد كانت أغنية عذبة انتشرت في كل أنحاء المعمورة. إنها تعود بهم الى التفكير في الوطن وفي السلم وفي الزوجات وفي المدن وفي القرى، وتستطيع أن تجعل الدموع تترقق حتى في عيون ثعالب الصحراء الخشنيين الأشداء. . ولم تكن تجلب الدموع في عيون الجنود الألمان وحدهم، فقد كتب «آلان مورهد» في كتابه عن أفريقيا يقول: «لم يطرِب هذا اللحن الجنود الألمان وحدهم، بل أطرِب الجنود البريطانيين كذلك». هذه هي أغنية «ليلي مرلين»، التي كانت قطعة من تاريخ الحرب. وكان عواء ابن آوى، يقاطع صوت اللحن في ممر حلفاية، مذكراً بالحقبة المرة. إنهم ليسوا في أوطانهم، وأنهم بعيداً في الصحراء الموحشة.

أشارت الساعة الى الرابعة، وسيبرز الفجر عما قريب. وظهرت سحابة ضخمة من الأتربة في الأفق. إنهم قادمون. الفرقة الرابعة الهندية مدعمة باللواء الرابع المدرع. واتخذ الكابتن باخ موقعه مع المدفع المضاد للدبابات، ذلك المدفع ٨٨ ملم الذي كان عليه أن يلعب الدور الرئيسي خلال الساعات القليلة المقبلة.

الأوامر صريحة «لا تطلق النار تحت أي ظرف من الظروف، دعهم يقتربون». أوامر من السهل إعطاؤها. سليمة ومناسبة للموقف. كان الجميع يرقدون في خنادقهم. وتقدمت الوحوش الهائلة ببطء، وارتعشت

الأيدي . . وغشت الأنظار، وقلت الرؤيا، فالعدو قادم من الشرق ووراءه الشمس، وزادت ضربات القلوب . . . وكان السكون قاتلاً . . وأسرعت الدبابات . . . وحوش هائلة ثقيلة سوداء. إذن هذه هي «ماركة ٢» المفزعة المخيفة.

ثم سمع انفجار يصم الأذان ويمزق الجو. نطق المدفع ٨٨ ملم، وصدرت الأوامر بفتح النيران. إصابات مباشرة وأعمدة من النيران. ثم إصابات مباشرة أخرى، وتمزقت أبراج الصلب المقسى من فوق الدبابات «ماركة ٢». لم يتراجع البريطانيون، فهم مصممون على احتلال الممر والطريق الساحلي توطئة لاحتلال ميناء السلم، ليكون قاعدة للتموين.

تقدم رجال اللواء الحادي عشر الهندي، واللواء الثاني والعشرين حرس، كانوا فتیاناً ممشوقي القوام، يتقدمون في الأرض المنبسطة الى مواقع الألمان، حيث ينتظرهم الموت في أطراف الأصابع الموضوعة على الزناد. كان لهم أمهات وزوجات وحييات ويحبون الحياة . . ولكن تسلطت عليهم جميعاً فكرة واحدة، هي طرد الألمان الملاعين من خنادقهم في ممر حلفاية . . و . . فتحت أبواب جهنم . . . هذه هي الحرب الحديثة . . . قتل بطريقة فنية وتدمير شامل. ووقفت دسنة من الدبابات المحترقة أمام المواقع الألمانية، لا حول لها ولا قوة. وانطلق المدفع ٨٨ ملم على تشكيلات المشاة المنضمة أيضاً، يقتل فيها . . . فتمزق المهاجمون شذر مذر. ومنذ هذه اللحظة، أطلق على ممر حلفاية اسم «ممر جهنم».

يقول التاريخ الرسمي للحرب الأفريقية، الذي نشر بواسطة الحكومة البريطانية عام ١٩٥٦، بعد دراسة مستفيضة لكل المصادر «لقد فشلت عملية «باتل اكس»، التي بدأت بأمل كبير، لعدم إمكان الاستيلاء على ممر حلفاية أو المرور من النقطة ٢٠٨ لعزم الدفاع وشدة نيرانه. وبرهنت المدافع ٨٨ ملم التي كانت مخفية تماماً، إنها مؤثرة على أية دبابة بريطانية. كما لعب عامل المفاجأة دوراً مهماً وبارزاً في هزيمة البريطانيين».

في صبيحة ١٨ تشرين الثاني /نوفمبر/ ١٩٤١، انفجرت الحدود المصرية - الليبية بالهجوم البريطاني في معركة «الكروسيدير». وفي ممر حلفاية القريب، أغلق الرائد باخ وجنوده الطريق الساحلي في وجه تقدم البريطانيين. ولمعرفة ما حدث في ممر الجحيم، مفتاح الطريق الى مصر، الذي طال التنازع عليه، فلنستمع الى رواية جنديين عن هذه المأساة، التي أكسبت الرائد باخ، الاسم الذي اشتهر به عند البريطانيين «القائد الجهنمي». . . وذلك بعدما تجاوزته القوات البريطانية، وأصبح مع رجاله معزولين في قلب الممر.

«كانت مياهنا تتناقص باستمرار. وبسقوط السلوم السفلي، احتل البريطانيون بئر مياهنا، وبدأت شفافنا تتشقق وحلوقنا تجف. وكان علينا أن نعمل شيئاً. أمر الأب باخ قوات الصاعقة بالاستيلاء ثانية على بئر المياه، لفترة قصيرة، حتى نتمكن من إعادة الملء. . . يا لها من معركة من أجل المياه.

نجح الملازم «انيجهولز» وجنوده، وبوغت البريطانيون تماماً. ولكن في فوضى المعركة والظلام الدامس، أطلقت كل من المجموعتين الألمانييتين - اللتين هاجم بهما الملازم انيجهولز بئر المياه من كلا الجانبين - النيران على الأخرى. وقتل عريف، وكشفت صرخة أطلقها أحد الجرحى طالباً حملة النقلات - عن المأساة. وعادت القوة ومعها جندي قتيل وآخر جريح وعربة محملة بالمياه. وكاد العريف «جنج» أن يفقد حياته في أثناء هذه الاغارة، كي يحصل على صفيحة مياه اضافية لنفسه ولزملائه. وأنقذه زميله «برون» وحمله على دراجته النارية، قبل أن ييزغ ضوء النهار. ونجح «جنج» في إنقاذ صفيحة المياه، وظل متعلقاً بها كما لو كانت كنزاً. . . وفي الحقيقة فإن صفيحة المياه هي كنز في ممر حلفاية. . . وخلال أيام عيد الميلاد في العام ١٩٤٢، لم نرسل معابدات الى الوطن، ولم نقم شجرة عيد ميلاد - فقط قرأ لنا الأب باخ، قائدنا وقسيسنا، بعضاً من الانجيل، وصرف لنا تعيينات من المياه

خاصة . واستبدلت أجراس أعياد الميلاد، بقذائف ٢٥ رطل البريطانية، التي كانت ترعد فوق خنادقنا وبين الصخور . . يا لها من ليلة عيد ميلاد . . .»

وعبثاً حاول «رومل» تنظيم امدادنا، بالطعام والمياه، بواسطة الطائرات، من جزيرة كريت. ففي الرحلة الجوية الثانية، انتظرت المقاتلات الليلية البريطانية، الطائرات «اليونكرز» وأسقطتها في البحر . . . وبعد ذلك لم يصلنا شيء . . .»

وفي الوديان ووسط الصخور، كان الجنود ينتظرون حال الاستعداد عند الغروب. وفي الخنادق والمخابيء ومواقع المدافع وفي الحملة ومطابخ الميدان المتنقلة . . كانوا يظهرن كالأشباح الشاحبة أو كأناس من عالم آخر . . .»

وفي المساء كنا نعود الى الحياة مرة أخرى. فتوزع التعيينات، فناجين من الحساء وعلبة من اللحوم المحفوظة وإبريق من القهوة المغلية في الماء المالح، لكل ثلاثة رجال في اليوم . . . وهو مقدار لا يكفي للموت أو للحياة . . . يكفي فقط للحرب. وتداولت السرية الثالثة المزحة التالية: «بهذا المقدار من الغذاء . . يمكن أن يحتمل الانسان الحياة وهو مستقل فقط».

وكان من الطبيعي أن يعرف البريطانيون، الوضع على حقيقته، في الممر. وبعد تجاربهم الدموية في محاولة الاستيلاء عليه، اعتمدوا على أن يميئوا الحامية جوعاً.

وفي إحدى ليالي منتصف كانون الثاني /يناير/، وصل الى الممر، بضع مئات من فرقة سافونا الايطالية. شقوا طريقهم من نقطتهم القوية غرب الممر، الى مواقع باخ، بموافقة رومل، فكانوا تعزيزاً قوياً، ولكنهم أضافوا عبثاً على التموينات القليلة. وبعد أسبوع، انتهت التعيينات، فأرسل الكابتن فويخت، وكان أقدم قادة السرايا، للتفاوض مع قوات جنوب أفريقيا، وبعد الاتصالات الابتدائية للتسليم ذهب الرائد باخ والملازم شميدت من مهندسي

الفيلق في عربتهم، للإتفاق على ترتيبات التسليم وشروطه. كان المسؤولان في قوات جنوب أفريقيا معقولين، فتقدمت المفاوضات بسرعة وسهولة ويسر. وعندما وقع باخ الوثيقة وغادر الخيمة، أوماً الملازم شميدت الى سائق العرب. . وفهم الجندي، ودون أن ينبس بكلمة رفع العلم الأبيض من على الرفراف اليمين للعربة ووضعه على الرفراف اليسار. . لماذا؟ . . .

كان ضمن شروط التسليم، أن على باخ بعد التوقيع، عدم إعطاء أي أوامر بتدمير الأسلحة والمعدات. لذلك رتب مع ضباطه خدعة. وأصدر أوامره قبل أن يركب العرببة ويذهب الى المفاوضات بالآتي: «أول حارس الماني يشاهد العرببة قادمة والعلم الأبيض يرفرف في الناحية اليسرى، عليه أن يرسل فوراً الى رئاسة الكتيبة «العلم الأبيض على الرفراف اليسار». وكانت هذه هي الإشارة المتفق عليها لتنسف كل المواقع مدافعها وعرباتها ومعداتنا. . ولو أن المفاوضات لم تصل الى شروط تقسيم شريف لبقى العلم الأبيض على الرفراف اليمين للعربة. ومعنى ذلك أن تبقى كل الأسلحة محشوة بالذخيرة ومستعدة لإطلاق النيران. ونجحت الخدعة. . . ولم تتحقق أبداً رغبة قادة جنوب أفريقيا في الاستيلاء على أي من مدافع ٨٨ ملم سليماً.

وأعلنت القيادة العليا الألمانية في بلاغ لها، أنهم قاتلوا حتى آخر طلقة. . وبدا ذلك رائعاً. . . ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. والحرب لم تكن أبداً رائعة. كان لا يزال لديهم بعض الطلقات، ولكن الجوع والظماً جعلهم يجشون على ركبهم. . وسقط الصقر في قبضة أعدائه. . . حين لم يعد يقوى على التحليق. . . وانطبق على الرجل ما قاله فريدريك الأكبر «لا يحتاج القائد الناجح الى أن يكون قديراً فحسب. . . بل يجب أن يحالفه الحظ، أيضاً».

ويبقى القائد «باخ» في النهاية مثلاً للتقدير والاحترام، ليس من قبل جنوده فقط، بل من قبل أعدائه، ومن قبل البشرية جمعاء. فهو جدير بمنصب

القيادة، كما هو جدير أيضاً بأن يقتدى به كجندي وقائد وإنسان. وأمثال «باخ» قليلون في هذا العصر، ولكنهم جديرون بالخلود.

المرجع

- ١ - حسن أبو لبدة. مجلة «الجيل» القبرصية. العدد الأول المجلد الرابع. شهر كانون الثاني/يناير ١٩٨٣. ص ٣٤ - ٤٠.

دقة الجاسوسية الألمانية بين النجاح والفشل

كثيرون جداً من الناس، هم الذين عشتت الفوضى وعدم الانضباط في دمائهم، ونخرت عظمهم في أحيان كثيرة. أدمنوا عليها وأصبحت جزءاً أساسياً من حياتهم، تماماً ككل المدمنين على تعاطي المخدرات، وتناول المشروبات الروحية.

وكثيرون جداً بالمقابل، هم الذين أدمنوا على الانضباط والتنظيم والدقة في أمور حياتهم. وطبيعي أن يكون هذا الإدمان المفرط سبباً في القضاء على صاحبه؛ وبخصوصاً في مجال المخابرات والتجسس، وفي حقل المعلومات. هذا وقد شكلت الحرب العالمية الثانية تربة خصبة لانتشار هذه الظاهرة التي برز في مرتبتها الأولى جواسيس الالمان النازيين، كما كان كثيرون منهم من أهم ضحاياها.

تميّز الالمان بنزوعهم نحو الدقة، أو بعبارة أعمّ نحو «فن مجابهة الصعوبات». . وهذا ما يوصف في كثير من الأحيان بالعبقريّة.

إزاء ذلك، كان لابد من «التخصّص» الدقيق لمواجهة هذا الفن الالمانى العريق، وتحطيم هذه الأسطورة التي يفتخر بها النازيون، رغم نجاحاتهم الواسعة في هذا الحقل. وبما أن البريطانيين كانوا معنيين أولاً وأخيراً بهذه الظاهرة، فقد أدركوا - بلا شك - أهمية ذلك، حتى برع فيهم

رجال تفتخر بهم الانسانية، وتقدر عظمتهم وخبرتهم في مجال مكافحة الجاسوسية، والالمانية منها خاصة.

ويعتبر العقيد البريطاني «أورست بنتو» من أعظم الرجال الذين تربعوا على عرش «مكافحة الجاسوسية» في العالم؛ وهو الذي لعب دوراً كبيراً في اكتشاف جواسيس المانيا، وإفشال الكثير من خططهم ومشاريعهم إبان الحرب العالمية الثانية.

وليست قضية الجاسوس الالمانى الخطير «تمرمانس»، إلا واحدة من تلك التي ساهم «أورست بنتو» في كشفها رغم دقتها الفائقة.

فما هي قصة «تمرمانس»؟ وما هي تفاصيل أسرارها؟.

إن الدقة المفرطة، في الواقع، قد تفضح الكثير، وتؤدي الى الهلاك.

كان «تمرمانس» من أصل بلجيكي، وكان عمره ما يقارب ٣٧ سنة، ولم يكن متزوجاً، وكانت مهنته البحرية، كما كان مظهره يدل على مهنته.

كان يبدو عليه أنه بحار عادي، ويمكنك أن تجد مائة مثله في أي ميناء في العالم. كان لباسه نظيفاً، ويبدو أنه يحسن العمل اليدوي، ولم يكن كثير الذكاء، لكنه كان كثير المنطق. وقد كانت عيناه زرقاوين، وشعره أشقر غير منتظم، ويبدو عليه أيضاً أنه عاطفي وغير مراوغ.

من هذا المنطلق، يقول العقيد «أورست بنتو» بأن قصته كانت أكثر اعتيادية من مظهره. فقد قرّر أن يترك بلجيكا بعد احتلالها من قبل الالمان ويلتحق بالبحرية التجارية البلجيكية في انكلترا، والتي كانت تحتل ميناء بركسهام الانكليزي. وقد اخترق فرنسا المحتلة وحده الى احدى المناطق، فجيء به بعد أن اتجه نحو الجنوب ووصل الى جبال «البرينس»... ولكونه بحاراً جيداً تمكن من اجتياز الجبال الى اسبانيا، وقد وضع هناك في السجن لسوء طالع. وقد أنهى سبعة أشهر في زنزانة مظلمة قذرة في برشلونة حتى تمكنت القنصلية البلجيكية من إطلاق سراحه بعد جهد كبير، وأرسل بعدها

الى لشبونة في البرتغال، حيث قدّمت اسمه القنصلية البلجيكية هناك بين قائمة المنتظرين للذهاب الى انكلترا. وبسبب كون «تمرمانس» شاباً ويمكنه العمل من أجل الوطن، أعطي الأفضلية في اللجوء الى انكلترا التي وصلها في نيسان عام ١٩٤٢. وقد جيء به الى المدرسة الوطنية في «كلافهام» لغرض الاستجواب الاعتيادي... ولأنه مواطن بلجيكي، فقد أرسل الى أحد المستجوبين البلجيكين. وقد كان هذا أحد تلامذة العقيد «أورست بنتو» حيث لم تكن له علاقة في موضوعه هذا حتى تلك اللحظة، لأنه كان مشغولاً في استجواب إسباني؛ وقد كان موضوع استجواب «تمرمانس» موضوعاً روتينياً ويستطيع ضابط الأمن البلجيكي أن يعالجه لفطنته وذكائه.

لقد كانت المهمة في المدرسة الوطنية تقضي بتفتيش لوازم المتهم بصورة دقيقة، سواء كانت حقائب أو لوازم شخصية. وقد يحمل الأبرياء الصور والجرائد المحلية وأوراقاً قد تنفع الكثير في إعطائها معلومات ممتازة للمستجوب المدرّب. والذي يصل لغرض التجسس يجلب معه عادة الوسائط التي بواسطتها يرسل المعلومات التي يحصل عليها. ولا يمكن للجاسوس مثلاً أن يحمل معه جهاز راديو كجزء من لوازمه، لكنه قد يخفي شيئاً صغيراً مثل آلة التصوير المايكرومي. بالإضافة الى ذلك، هناك قليل من الجواسيس لهم قوة ذاكرة لحفظ الأسماء والعناوين وفي لغة أجنبية غالباً لغرض إيصال المعلومات التي حصلوا عليها. ولهذا كان يقتضي تفتيش جميع حقائب ولوازم المتهمين الشخصية باعثناء كبير، ويؤخذ بهذا عادة بعد الحصول على الاستجواب الأولي منهم، وقبل الاستجواب المفصل الذي يستند عادة على تفتيش لوازم المتهمين والأدلة المستقاة منها.

وفي المدرسة الوطنية كانت هناك غرفة خالية من الأثاث إلا من منضدة طويلة جرداء وكراسي موضوعة على جانبيها، وقد أطلق عليها اسم «غرفة الخشب». وفي كل صباح يجلس المستجوبون وينشرون أمامهم لوازم «زبائنهم»، وقد يفحصون أحياناً تحت زجاجة التكبير كافة حقائب الألبسة

وحقائب الكتب والمحافظ وكتب الجيب والمراسلات وأقلام الحبر وأغلفة النظارات ومشارب الدخان وعلب السجاير والمفاتيح وكل شيء غريب يحمله اللاجئون.

ويدقق كل شيء بمتنهى الاعتناء، وعند الفراغ منه يوضع الى جانب. وكانت الغرفة على العموم شبيهة بالجمرك أو المزداد.

كان العقيد «أورست بنتو» جالساً الى جانب ضابط الأمن البلجيكي، وكان الصباح جميلاً في أحد أيام شهر ابريل حيث الشمس المشرقة والأزهار المتفتحة، وكان هو منهمكاً في موضوع «تمرمانس». وبينما كان «بنتو» غارقاً في التفكير يدرس لوازم اللاجيء الاسباني العنيد، التفت نحوه تلميذه وقال: «ماذا تظن أن يكون هذا يا سيدي؟».

لقد بدّد تركيزه هذا السؤال وأزعجه - كما يقول بنتو - فنظر اليه وهو يفرغ محتويات محفظة قديمة سوداء وأخرج منها غلافاً، وفتح الغلاف وأخرج منه مسحوقاً أبيض. فأجاب العقيد «أورست» متضايقاً: «كيف أعرف هذا بحق السماء؟ إني لست بمختبر. أرسله الى المختبر وأطلب تحليلاً عاجلاً». ثم رجع العقيد الى عمله يفحص لوازم الاسباني، إلا أنه انتبه بعد لحظات الى صوت (يقول عنه كسولاً) يسأله: «هل يمكنني مقاطعتك ثانية يا سيدي؟». فالتفت الى تلميذه الشاب وكان على وشك إعطائه محاضرة عن الشباب غير الكفوء الذي لا يتمكن من القيام بواجباته، ولكنه رأى ما كان في يده، وكان ذلك رزمة من عيدان الليمون شبيهة بما تستعمله الصبايا الحسان لغرض تدوير مجالس أظافرهن... وصرخ عندها: يا الله... ماذا دهاك يا سيدي؟ قال:

لا شيء، استمر وأخرج القطن، (أجابه بنتو).

القطن؟ فصاح باستغراب والنظرة التي طفرت على وجهه كشفت عن شكّه بأن أحدهما يجب أن يكون مجنوناً وأنه ليس بذاك الشخص، ومع هذا

نفذ الأمر ونظر في الجيب الآخر من المحفظة وأخرج بأصابعه قطعة من القطن. وفي هذه اللحظات أنهى قصة جاسوس الماني اسمه «تمرمانس».

إزاء هذا الوضع، يقول العقيد «أورست»: وبعد أن شرحت له أهمية اكتشافه طلبت منه أن يترك موضوع «تمرمانس» لي ويبدأ في موضوع آخر. وأخذت أصدق بهذا الجاسوس الألماني والدقة الألمانية التي كشفتها. ومن يرسل الى انكلترا لابد أن يجهز بكل الأشياء حتى الصغيرة والتافهة منها. ولكن سيّد الجواسيس (الذي عرفنا بعدها أنه سكن في دار ضيوف في لشبونة) أعطاه الرسالة التي أوصلته الى جهاز مكافحة الجاسوسية دون عناء. فلقد زوّده بثلاث ضروريات للكتابة السريّة: مسحوق البارميّدون ليذاب في مخلوط من الماء والكحول، وأعطاه عيدان الليمون كواسطة للكتابة، وكذلك القطن لغرض لفّه على رؤوس العيدان ليتجنب خدش الورق. والشيء الذي يستحق الرأفة من ناحية «تمرمانس» هو أن بالامكان لأي شخص شراء تلك الضروريات الثلاثة من أي صيدلية في انكلترا، ودون أن يسأل أحد عن السبب في شرائه هذه الأشياء. وهنا أصبح عليه أن يوضح الأمور بسبب دقّة سيده.

والحقيقة أن اكتشاف حقيقة الجاسوس شيء، والاعتراف بالجريمة شيء آخر. وكان من الواجب الإتيان ببرهان أمام محكمة لإدانته بموجب القانون. وقد تمكن العقيد «أورست بنتو» من وضع رأس «تمرمانس» في المشنقة، إلا أنه لم يسحب الحبل.

ذهب العقيد بعد ذلك الى غرفته، واستدعى سكرتيرته في الهاتف، وطلب منها أن تسجل له كافة لوازم «تمرمانس» بقائمة بحيث لا تترك أي شيء مهما بدى تافهاً. وبعد دقائق كانت هناك أمامه قائمة مطبوعة على مكتبه، وأدخل فيها بين المواد الغديدة المواد الثلاثة التالية:

غلاف فيه مسحوق...

رزمة واحدة من عيدان الليمون...

قطعة من القطن.

وبقي على «أورست» أن يحصل على اعتراف «تمرمانس» بأن هذه الأشياء الثلاثة هي له. وفي تجربته أن كثيراً من الجواسيس يدعون بأن الأدلة التي وجدت بين لوازمهم زرعت معهم من قبل المستجوبين. ودون وجود أي برهان ضد هذا الادعاء يأخذ الحاكم بما يقولونه ويخلي سبيلهم. ولقد غلب العقيد «بنتو» مرة ولا يمكن أن يغلب ثانية. وبعدها أرسل بطلب «تمرمانس».

دخل «تمرمانس» غرفة «أورست» بمشية مضطربة، وجلس عندما طلب منه الجلوس... وأخذ ينظر في عيني العقيد ثم ابتسم ابتسامة خجلة دون وعي، فابتسم له «أورست» وقدم له علبة السجاير فأخذ واحدة منها وأشعلها له، ثم تنفس نفساً عميقاً وطرح ظهره الى الخلف. قال له العقيد: حسناً يا «تمرمانس» - في البلجيكية - إن قضيتك غير معقدة لحسن حظك، وقد تحققنا من قصتك ووجدناها كاملة تماماً...

ابتسم «تمرمانس» ثانية. وأضاف العقيد: «قيل لي أنك ترغب في الانضمام الى البحرية التجارية البلجيكية الحرة وتقوم بسهمك من الحرب...».

- نعم تواق جداً يا سيدي، قالها مبتسماً وقد تشجع.

أجاب العقيد بنتو: اني مسرور أن أسمع هذا، لأن البحرية التجارية البلجيكية تحتاج الى رجال طيبين مثلك (وأخذت أقلب بعض الأوراق)، وأردف أورست قائلاً: حسناً ليس هناك حاجة في تعطيلك أكثر من هذا؛ لقد تم استجوابك وأنت كما أعلم ترغب بالالتحاق بمواطنيك بأقرب فرصة ممكنة، وسأطلب من ضابط الهجرة أن يعطيك سمة الدخول حالاً، وإن رافقك الحظ يمكنك أن تركب القطار هذه الليلة الى «بركسهام»، ما رأيك؟.

- هذا رائع يا سيدي، أشكرك جداً (وقد انتشرت ابتسامته من الأذن للأذن).

ثم قلت: هناك شيء واحد، فهذه لوازمك على المنضدة، تأكد منها،

لوقّع هذا الوصل الرسمي بها، ويمكنك أخذ لوازمك والذهاب في طريقك. . .

تناول «تمرمانس» القائمة من أمام العقيد «أورست» ووقعها بعد أن قرأها وقال: كل شيء على ما يرام سيدي.

وساد الصمت أثناء توقيعه حكم نفسه بالموت.

بعد هذا دفع «تمرمانس» كرسيه إلى الخلف وتساءل: هل هذا كل ما تطلبه يا سيدي؟ قال العقيد: ليس تماماً. وأخذ يفتح محفظته بهدوء وأخرج المسحوق ورزمة العيدان ثم قطعة القطن، ووضعها بالترتيب على النشاف، وأخذ ينظر إليه، فاصفرّ وجهه وزالت ابتسامته واضطربت عيناه. . .

قبل أن تذهب أرجو أن تفسّر الأسباب التي جعلتك تحمل مثل هذه الأشياء بصورة خاصة في محفظتك، وهي أشياء اعترفت أنها لك بتوقيعك لهذه القائمة؟.

اضطرب ونظر إلى القائمة التي في يدي العقيد، وكان كما لو يتحجّن الفرص لاختطاف هذه الورقة المقيمة من يده، ثم استرخى وطفرت على شفته ابتسامة نصر.

قال: طبعاً يمكنني تفسير ذلك يا سيدي. . . لقد حيرتني برهة ولكنني أتذكر الآن جيداً، عندما كنت في السجن في برشلونة - وقد أخبروك عن ذلك طبعاً - نزلت زنزانة في السجن مع شيوعي اسباني. وفي صباح أحد الأيام الباكر جاء إليه الحرس وأخذوه خارجاً. وعند سمعه وقع أقدامهم في الممر، رمى لي بهذه الأشياء الثلاثة وقال إنهم سيقتلونه لو وجدوا هذه الأشياء معه، وطلب مني أن أحتفظ بها له حتى يرجع.

وهنا تنفس عميقاً وأردف قائلاً: ولكنه لم يرجع ثانية. وقد وضعت هذه الأشياء في محفظتي ونسيت كل شيء عنها حتى هذه اللحظة. . . أقسم بشرفي يا سيدي.

لقد أخفى العقيد «أورست» اعجابه بهذا الرد السريع وأخذ ينظر إليه . .
وقد قفزت له فكرة لاكتشافه فجربها فوراً . . .

ابتسم العقيد كما لو أنه بدأ يفهم نكتة لطيفة، ثم اتسعت ابتسامته وأخذ
يضحك من أعماقه بدون توقف، وألقى رأسه الى الخلف، واحمر وجهه
وسالت الدموع من عينيه، كما لو لم يكن في الدنيا نكتة ألطف . . .

جلس «تمرمانس» كالشبح طابقاً فكّيه واحمرّت جبهته وأخذ يرتجف
كلما تعالى ضحك «أورست». وانهار في النهاية وأخذ يضغط راحتيه على
أذنيه ووقف على قدميه وأخذ يصيح ويستم ويطلب من العقيد «بتو» أن يوقف
ضحكه الجنوني هذا قائلاً:

سأخبرك كل شيء . . . كف عن الضحك من أجل السماء؟ .

وبعد أن حذّره «أورست» من أن أي شيء يقوله قد يؤخذ كدليل ضده،
كتب ووقع اعترافاً كاملاً ثم طبع بصورة لطيفة ووضع على مكتب العقيد
المنتصر. وتبين بأن «تمرمانس» هذا من أكبر جواسيس النازية وأكثرهم خطورة
ودهاء. لذلك نفذ به حكم الاعدام في «وندسورث» في السابع من يوليو سنة
١٩٤٢، ضحية للدقة والعبقرية المفرطة.

وهكذا تخلصت البشرية من جاسوس نازي كان بإمكانه أن يعرّض حياة
الآلاف من الناس لخطر الإبادة وفق أحدث الفنون الهتلرية في هذا المجال.

الوفاء الهتلري واختطاف موسوليني من الأسر

النازية تسري مع الدم في شرايين هتلر، والفاشية تتغلغل في عروق موسوليني . . وكلاهما وجهان لعملة واحدة . . .

«الفوهرر» في المانيا . . . و«الدوتشي» في ايطاليا . . سرطان خبيث تسلل في النصف الأول من القرن العشرين الى جسد أوروبا وحاول الامتداد والتوسع للسيطرة على الكون بأجمعه وكاد يتصرف وقارب الحلم من التحقق . . والخيال الى واقع . . وأصبحت «الأرض التي لا تتسع إلا لملك واحد» على شفا الولاء لذلك «الزعيم» الممثل بعنصرية «العرق» و«النقاء الدموي» .

ولم تكن الحرب العالمية الثانية إلا ثمرة هذا التحالف النازي الفاشي لإخضاع العالم كله لهذا الأخطبوط الجهنمي الذي يسعى لجعل البشرية جمعاء لقمة سائغة لشهيته التي لا تشبع .

وإزاء ذلك اعتقل الدوتشي أثناء الحرب هذه ووضع تحت حراسة دقيقة في أحد الأماكن السرية في ايطاليا . ولكن حليفه الفوهرر لم يتخل عنه في لحظاته الصعبة ودبر عملية اختطافه من الأسر ونجح .

كيف تم ذلك؟ وما هي أسرار هذه العملية؟ .

لقد شهدت الحرب العالمية الثانية تحولات هامة في المواقف مع بداية عام ١٩٤٣ . ففي الثالث من كانون الثاني /يناير/ ١٩٤٣ انسحب الالمان من

القوقاز. وفي ١٤ منه قامت جبهة الدون بهجوم عام انتهى باستسلام الالمان في ستالينغراد يوم ٣١ منه. أيضاً وفي ١٢ أيار / مايو/ انتهت معركة تونس وفقد الالمان كل أمل في ممارسة عملياتهم فوق مسرح شمالي أفريقيا. وفي ١٠ تموز / يوليو/ ١٩٤٣ أنزل الحلفاء قواتهم في صقلية. وكان هذا الانزال حافزاً للقوى المناهضة للفاشية وفي طليعتها الحزب الشيوعي الايطالي الذي قاد النضال ضد موسوليني ونجح في الاطاحة بحكمه يوم ٢٥ يوليو ١٩٤٣. وعملت هذه القوى على تشكيل حكومة ائتلافية وحاولت اتخاذ مواقف مترددة وغير حازمة تجاه المانيا، كما كان موقفها ضعيفاً من الدوتشي. فعملت على نقله في البداية الى ثكنة الطلاب الرماة ثم الى جزيرة بونزا ومنها الى قاعدة مادلينا. ولم تكن هذه المراكز جميعها صالحة للمحافظة على سر الأسير موسوليني أوحى لإخفاء شخصيته وعدم إثارة الشكوك حول وجوده.

وكانت حكومة «بادوليو» التي خلفت حكم موسوليني خاضعة لمجموعة كبيرة من المؤثرات. فقد تابعت رسمياً الحرب الى جانب هتلر بعد المقابلة التي تمت في السادس من آب / أغسطس/ وفي الوقت ذاته كانت هناك اتصالات سرية تجري في الخفاء مع الحلفاء وقياداتهم التي كانت تدفع القوات من الجنوب. وقد التزمت حكومة «بادوليو» أمام هتلر بالمحافظة على حياة الدوتشي.

وعندما شعرت المانيا بالدور المزدوج الذي تمارسه حكومة «بادوليو» قررت توجيه ضربة حاسمة لمعالجة الموقف المتدهور على أمل إعادة عقارب الساعة الى الوراء. ودفعت قوات كبيرة لدعم فرقها الثماني المتمركزة على الحدود الايطالية. ومقابل ذلك قام الحلفاء في اليوم العاشر من آب / أغسطس: بإنزال قواتهم في صقلية. وفي يوم ١٧ منه احتلوا مسينا. وفي الثالث من أيلول / سبتمبر/ بدأ غزو الحلفاء لإيطاليا.

وبدأت الأحداث في التسارع بصورة مذهلة مما دفع القيادة الالمانية الى التفكير بشن ثورة مضادة ضد حكومة «بادوليو» وإعادة الدوتشي الى

السلطة . وقد ظهرت بعض الشواهد التي أثارت شكوك الايطاليين ومنها تبديل الوزير الالماني المفوض «ماكنسن» بالبارون «راهن» المعروف بدهائه وشخصيته القوية ، وما قام به من دور في فيينا للتحريض على قتل «أدولف هتلر» . وهو الذي جعل أيضاً من الاميرال استيفا منفذاً لماربه وخادماً أميناً لمخططاته خلال عملية احتلال تونس . ثم أعقب ذلك وصول عدد من المظليين التابعين للفرقة الأولى والثانية الى روما . وجاءت بعدها الاغارة التي نفذت يوم ٨ أيلول /سبتمبر/ بهدف اختطاف المارشال «بادوليو» . أما الخطة الأساسية التي اختفت وراء هذه الشواهد فهي عملية اختطاف موسوليني والتي أعطى الأوامر بتنفيذها شخصياً زعيم الرايخ أدولف هتلر، وتابع الاشراف على الاستعداد لتنفيذها وكلف بها شتودنت من أجل تحضير مخطط التحرك الجوي، وسكورزيني لتنفيذ عملية الاغارة .

وبدأ سكورزيني عمله بالبحث عن الملجأ الذي تم فيه اعتقال الدوتشي . وسرعان ما وصل الى هدفه . ولكن الحكومة الايطالية أصدرت أمرها يوم السابع والعشرين من آب /أغسطس بنقل موسوليني من سردينيا الى حصن مادلينا . وكان المعتقل الجديد يقع في سلسلة قائمة من جبال «غرا، ساسو» وعلى ارتفاع ٢١٠٠ متر عن سطح البحر فوق مسطح أرضي ضيق ، سيد ليكون فندقاً لهواة التزلج على الجليد . وكان يدعى «بالنزل الامبراطوري» . وكان بطبيعة موقعه سهل المراقبة والحراسة . وفي يوم ٢٨ منه جرى نقل موسوليني بواسطة سيارة اسعاف الى فندق صغير في قرية فييتا عند سفح القطار الهوائي (التليفريك) ، والذي يصل المعتقل بطريق اكيبلا . وبقي موسوليني في هذا الفندق حتى يوم ٦ أيلول /سبتمبر/ وذلك حتى انتهت عملية تنظيم الحراسة واتخاذ احتياطات الأمن في المعتقل وتنظيم الدفاع عنه . وكان سكورزيني يتابع عمليات النقل ، فأرسل في يوم ٢٨ آب /أغسطس المعلومات الى القيادة . وفي اليوم الرابع من سبتمبر أرسل تقريره بواسطة ضابطين . حملتهما سيارة سياحية الى فييتا . وفي يوم ٥ سبتمبر حلقت طائرة المانية فوق المعتقل لاستطلاع قبل التقاط صور جوية له في اليوم التالي .

وفي ٦ أيلول/سبتمبر أصبح النزل الامبراطوري جاهزاً لاستقبال موسوليني بعد أن تم ابعاد النزلاء عنه. وكان تنظيم هذا النزل مماثلاً لغيره من الفنادق المخصصة لممارسة الرياضة الشتوية. فكان بناؤه يضم طابقاً أرضياً وضعت به زمرة الاتصال ومعها جهاز لاسلكي للإتصال مباشرة مع روما. وطابقاً ثانياً خصص لإقامة موسوليني في جناح منه. على حين خصصت الغرف المجاورة لإقامة الحرس ورجال الشرطة. وكانت قوة الحراسة تضم مئات من القناصة (مهرة الرماة) بقيادة عقيد من قوات القناصة. وقد نظمت الحراسة على جميع محاور الطرق والممرات التي تصل الى النزل. كما كانت الملاحيء تشرف على جميع محاور الاقتراب من النزل. وبالإضافة الى ذلك فقد نظمت الدوريات ومفارز الكلاب البوليسية للتجول في الضواحي بصورة مستمرة. ووزعت على رجال الحرس ثياب التزلج ومعداته. وكان المفتش العام للشرطة «جيلي» المسؤول عن حراسة موسوليني. كما كانت القوى والوسائط الموضوعية تحت تصرفه كافية لتنفيذ المهمة على أفضل وجه. لا سيما وأنه كان باستطاعته الافادة من الموقع الطبيعي الحصين للنزل وما تتوفر حوله من حواجز وعوائق بالإضافة الى عزله وبعده عن كل منطقة سكنية مما يجعل عملية الاحتفاظ بموسوليني والدفاع عن النزل أمراً مضموناً.

وبتاريخ ٨ / ٩ / ١٩٤٣ أعلنت الحكومة الايطالية استسلامها للحلفاء وأعلنت خروج قواتها من الحرب وبذلك فقدت القوات الايطالية كل إرادة للقتال. وأسرعت خمسون فرقة ايطالية بالاستسلام للحلفاء في البلقان وفي ايطاليا الشمالية وفي الريفيرا الفرنسية. ووافقت قيادات هذه القوات على القاء السلاح والخضوع لشروط معاملة أسرى الحرب. وفي اليوم التاسع من أيلول/سبتمبر أنزل الحلفاء قواتهم في «ساليرنو» مما أحبط إرادة القتال عند بقية القوى الايطالية وأخضعها لظروف نفسية سيئة. وقد زاد تردد حكومة «بادوليو» الأمر سوءاً مما انعكس على الوضع العام كله وعلى الموقف الخاص بموسوليني بصورة واضحة. فقد أعطى مدير الشرطة الايطالية في حكومة «بادوليو» أوامره الى المفتش العام «جيلي» عند تنظيم النزل الامبراطوري

بشكل دقيق وحازم: «يجب قتل موسوليني وعدم تسليمه اذا حاول الالمان اختطافه» وقد وجدت هذه الأوامر الصريحة المنفذ الحازم لها وهو «جيلي» الذي عرف بشجاعته في تنفيذ جميع الأعمال والواجبات التي كلف بها في الماضي، ومنها أنه قتل بيده زعيماً خطيراً من زعماء العصابات، بالإضافة الى أنه من المناوئين للفاشية. ولكن الأوامر المتناقضة أخذت في الوصول تبعاً. ففي اليوم الثامن من سبتمبر وبعد توقيع اتفاقية الهدنة هرب «بادوليو» مع العائلة المالكة من روما. وفي اليوم التاسع من سبتمبر تحولت روما الى ساحة للقتال العنيف وتابعت الفرق والقوات الإيطالية استسلامها للحلفاء في كل مكان.

أما الوزراء فقد بقوا في روما وعقدوا اجتماعاً حضره مدير الشرطة وطرح فيه قضية موسوليني على وزير الخارجية «ريكسي». ودار نقاش حول الاحتمالات المختلفة التي يمكن مجابتهها والى ما يمكن حدوثه من عمليات انتقامية تستهدف الجميع اذا قتل الدوتشي. وانتقل النقاش الى استعراض أحداث الاضطرابات الداخلية.

وتوقف النقاش عندما وصل تحذير القيادة الألمانية الى الحكومة الإيطالية ومطالبتها بتسليم المدينة. وإلا ستعرض روما للقصف من قبل سلاح الطيران وستقوم القوات الألمانية بالانقضاض دون هوادة.

وأمام هذا الموقف أصبحت المقاومة في النزل الامبراطوري تحمل جوانب خطيرة. فأصدر مدير الشرطة أمره الى المفتش العام جيلي وأبلغه هاتفياً: أعمل بمنتهى الحذر. وفي العاشر من سبتمبر هدأ القتال في روما قليلاً وبدأ الموقف في الظهور بشكل أكثر وضوحاً. فأرسل وزير الداخلية تعليماته بالهاتف الى المفتش العام وفيها: عد الى التعليمات الأولية. ولكن القوات الألمانية أسرعوا بالتوجه الى روما. وفي يوم ١١ سبتمبر أمكنها فرض سيطرتها على المدينة. وفي يوم ١٢ منه كان لا يزال باستطاعة وزير الداخلية الاتصال مع حكام المدينة الذين كانوا على اتفاق معه من أجل الابقاء على حياة موسوليني. وتجددت المحاولة للاتصال بالمفتش العام في النزل

الامبراطوري . ولكن الأسلاك الهاتفية كانت مقطوعة في هذه الفترة، فأرسلت برقية باللاسلكي . ووصلت هذه البرقية قبل الاغارة الالمانية بساعات قليلة . وزادت الموقف غموضاً «اعمل بمتهى الحذر» . وأطاع «جيلي» متردداً لا يدري ماذا يجب عمله بدقة لو قام الالمان بهجوم مباغت . ولكن تردده لم يستمر طويلاً فقد ظهرت وبصورة مباغته القوات الالمانية يتقدمها قائد الشرطة العسكرية «سولتي» . وكان دفع قائد الشرطة العسكرية الايطالية أمام قوة الاغارة بمثابة ضربة مباغته لم تخطر في مخيلة أحد سوى «سكورزيني» ، الذي حاول في البداية الحصول على رهينة هامة . وانطلق رجال الغستابو مع مظليي الفرقة الثانية في البحث عن مدير الشرطة ولكن هذا اختفى عن الأنظار، فقرر سكورزيني استخدام رهينة أخرى وتقرر اختطاف قائد الشرطة العسكرية «سولتي» . وتم تنفيذ ذلك ثم بدأ وضع مخطط العملية موضع التنفيذ .

وفي يوم ١٢ سبتمبر أقلعت من مطار «براتيكا» مجموعة من اثنتي عشرة طائرة تقطر خلفها اثنتي عشرة طائرة شراعية تحمل بمجموعها قوة من المظليين التابعين لقوة سيك ريجيمنت، ويبلغ عدد أفرادها مائة وعشرة مظليين . وفي الساعة الرابعة عشرة وبعد ساعة تقريباً من الطيران وصلت الطائرات الى منطقة النزول الامبراطوري . وتخلت الطائرات القاصرة عن الطائرات الشراعية لتهبط على شكل موجات ثلاث وذلك لتجنب لأخطار التي قد تنجم عن هبوط الطائرات الشراعية في موجة واحدة ضمن نطاق أرضي محدود وأمام قوات قد تقوم بالمقاومة . ووصلت طائرات موجة الهجوم في البداية وتوجهت بسرعة الى المركبة الهوائية (التليفريك) وعملت على قطع الأسلاك . وتم تنفيذ ذلك خلال فترة قصيرة جداً . وبذلك أمكن عزل النزول الامبراطوري ومنع أي محاولة لإخلائه أو الفرار بالمعتقل موسوليني . وخلال ذلك استمرت عملية هبوط الطائرات الشراعية بالتتابع على المنعطفات التي تحيط بالنزل، ولم تكن عملية هبوط هذه الطائرات بمنجاة من كل خطر . فلقد اعترف الالمان بأن خسارتهم قاربت ثلث المنفذين في هذه العملية نتيجة لاصطدام الطائرات الشراعية بالعوارض الأرضية القاسية، وانقسم من

بقي حياً الى زميرتين. الزمرة الرئيسية ومهمتها السيطرة على محاور الاقتراب من النزل الامبراطوري ووضع المدافع الرشاشة على الطرق والدروب في مواجهة النزل. وكانت مهمة بقية مجموعة التنفيذ اختراق مبنى النزل. وتوجهت زمرة الى الطابق الأرضي للسيطرة على الجهاز اللاسلكي، في حين توجهت زمرة مكونة من ثمانية عشر مقاتلاً الى الطابق الأول. وذهل القناصة الايطاليون ذهولاً تاماً لظهور المظليين الالمان في مواجهتهم، فلم يحاولوا اطلاق النار أو استخدام أسلحتهم. وهبط من الطائرة الشراعية الأولى قائد الشرطة العسكرية الجنرال سولتي وتبعه سكورزيني وتبعهم جند من الالمان الممسكين بمسدساتهم الرشاشة وأصابهم على الزناد. وتوجه الجميع نحو المدخل الرئيسي للنزل وتجاوزوا بسرعة مسافة المئتي متر الفاصلة بين مكان الهبوط وبين النزل. وفي قلب هذا الذهول ظهر الدوتشي من نافذته وصاح اياكم والرمي، وردد الجنرال سولتي بدوره اياكم والرمي. وأسرع الالمان الى الدور الأول حيث كان يقيم الدوتشي. وانتهت المرحلة الأولى من العملية بنجاح رائع وبدأت المرحلة الثانية.

في الساعة الخامسة عشرة من يوم ١٢ أيلول /سبتمبر/ هبطت بالقرب من الفندق وعلى سطح أرضي تم اعداده بسرعة طائرة صغيرة نموذج فيزير يقودها طيار عرف بكفاءته العالية. وكان قد تم طلب الطائرة بواسطة الجهاز اللاسلكي. وصعد موسوليني وسكورزيني. ولكن مرحلة الصعود كادت تنتهي بكارثة لولا عمل المظليين بسرعة على تمهيد الأرض وتسويتها وإزالة العوائق والصخور والتواءات حتى أصبحت الأرض صالحة للإقلاع في حدود ستين متراً. وفي الساعة السادسة عشرة والنصف تقريباً انتهت الاستعدادات ودارت مروحة الطائرة وقفزت الطائرة فوق حفرة لا زالت تعترض طريقها ثم وصلت الى منحدر كادت تنزلق فيه ولكن الطيار استطاع السيطرة على الموقف ونجح في الارتفاع. وبعد الإقلاع بفترة لا تزيد على الساعة وصلت الطائرة الى روما حيث كانت تنتظرها طائرة نقل. وفي المساء كانت طائرة النقل تهبط في مطار فيينا وعلى متنها الدوتشي. ووصل موسوليني في النهاية وقابل هتلر بفرحة لم

يستطع كبح جماحها عندما بدأ حديثه اليه : «كنت أعرف أنكم لن تتخلوا عني». وعاد موسوليني الى روما ليحكم ايطاليا بفضل حراب النازية التي كانت تسير نحو نهايتها. ولقد بقي في روما حتى اقترب الحلفاء منها واعتقل وهو يحاول الهرب الى سويسرا وأعدم في ٢٨ ابريل ١٩٤٤ .

يبقى أخيراً أن نقول بأن التاريخ ليس من صنع هتلر ولا موسوليني وأمثالهما. وليس عن طريق هؤلاء يصنع تاريخ حقيقي .

فمن يقامر بمصير الشعب والوطن والبشرية جمعاء ليس أهلاً للقيادة والسلطة والحكم . ومن يعتبر الجماهير والشعب قطعاً بشرياً لا مهمة له سوى إيصال الطغاة والمتحكمين الى سدة العرش القائم على الدم والجماجم، فهذا ليس من طينة البشر. . .

والبشرية بأجمعها شهدت مصير هؤلاء الطغاة الذين قضوا قتلاً أو انتحاراً لا فرق بانتهاء الحرب العالمية الثانية التي أشعلوا فتيل نارها المتفجر محولاً العالم كله الى كومة من لهب، وكان لحم البشر وعظامهم فيها طعاماً لها. واعتبروا يا أولي الألباب .

المراجع

- ١ - «الموسوعة العسكرية» الجزء الأول. بإشراف المقدم الهيثم الأيوبي . منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٧ . ص ٣٩ - ٤١ .
- ٢ - عبد الوهاب كيالي وكامل زهيري «الموسوعة السياسية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٤ .
- ٣ - سكورزيني (سلسلة قادة الحرب العالمية الثانية) ترجمة كمال عبدالله المكتبة الحديثة. بيروت ١٩٨٣ .

المخابرات الألمانية وأسرار عملية القطب الشمالي

كثيرون هم الأشخاص في هذا العالم، الذين كانوا عظماء في حياتهم، ولكن الكثيرين أيضاً كانوا عظماء في حياتهم وفي مماتهم على السواء، وكان نابوليون بوناپرت في عداد هؤلاء العظماء الذين تفتخر الانسانية ببطولاتهم ومآثرهم. وكم كان مصيباً نابوليون عندما قال بأن «جاسوساً واحداً في الموضع المناسب هو بمثابة عشرين ألف جندي في ميدان المعركة». وكذلك كان رأي الملك جورج الخامس الذي ذكر «أن الجاسوس هو أعظم الجنود، ويكرهه العدو أشد من غيره لأنه يخشاه أكثر من أي شيء آخر»..

ينطبق هذا القول بشكل كبير على الكابتن «أريك فانتر VANTER» من رجال الاستخبارات الألمانية «الغستابو» وبطل عملية «القطب الشمالي» التي هزت بريطانيا في الحرب العالمية الثانية.

فمن هو «أريك فانتر»؟ وما هي أسرار عملية «القطب الشمالي»؟.

تعتبر هذه العملية من أبرز الانجازات التي حققتها المخابرات الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. اذ في شتاء عام ١٩٤١، كلف جهاز «الغستابو»، الكابتن «أريك فانتر» بالاشراف على النشاط الذي يقوم به الجواسيس التابعون لدول الحلفاء في هولندا المحتلة من القوات الألمانية. وكانت مهمته الأولى تنحصر في كشف مقر القيادة السرية لجماعات المقاومة وأن يحول بينها وبين الاتصال بلندن، وكانت نقطة البداية بالنسبة لهذه

المهمة، عندما استطاع الكابتن «فانتر» أن يدخل أحد عملائه ضمن خلية تابعة لرجال المقاومة، حيث استطاع هذا العميل أن يزود رئيسه بكثير من الأسرار التي حصل عليها. وأكد في أحد تقاريره الخطيرة أن أحد ضباط اللاسلكي كشف إذاعة سرية كانت تبث مبتدئة بالأحرف (ر-ل-س)، وفي ساعة معينة من مساء كل يوم، فتقرر الاستيلاء على هذه المحطة. وخلال ثلاثة أشهر تمكن الألمان من الاستيلاء على المحطة المذكورة، واعتقال مديرها الإنكليزي ويدعى «الكابتن بويدز». وبعد ساعتين تم اعتقال باقي الأعضاء والمعاونين. . . ومعرفة جميع الرموز والشفرة. وجاءت الأوامر إلى «الكابتن فانتر» بمتابعة الاتصال مع لندن وتضليلها فأوعز إلى «الكابتن بويدز» بمتابعة الاتصال بلندن، لكنه رفض بإصرار مساعدة ضابط اللاسلكي «تيمبس» أيضاً وفشلت عدة محاولات لاقتناعهما بالعمل باللطف واللين، مما اضطر الألمان إلى استعمال التهديد والعنف، وطلبوا منهما الاستعداد لتقديمهما إلى المحكمة العسكرية التي ولا شك سوف تحكم بإعدامهما. وكان لهذا التهديد أثره لدى «الكابتن بويدز» فوافق على معاودة الاتصال وقام بإرسال الرسائل الثلاث التي تعود إرسالها يومياً، وتلقى الجواب عليها من لندن، مع رسالة جديدة عن وصول مندوب جديد، وطلب إعداد منطقة لهبوطه ومعه كمية من العتاد، وفي وقت كانت فيه عناصر المخابرات الألمانية على استعداد في كل لحظة لقطع الاتصال مع لندن عند أول بادرة من بويدز. .

وبعد هذا الاتصال لم يستطع المدير الإنكليزي أن يكتف أسفه وحزنه على ما قام به، وصرح بأنه لن يقوم بعد ذلك بأي اتصال، وأنه يفضل الموت على أن يرتكب مثل هذه الجريمة بحق مواطنيه.

ولكن المخابرات الألمانية عادت إلى التهديد، وأفهمته أن رفضه التعاون سوف يؤدي بالمندوب الجديد إلى الأعدام. أما إذا استمر في معاونتهم فإنه ينقذ من سوف يحضر غيره بعد ذلك، فاضطر إلى الرضوخ ومتابعة الاتصال تحت المراقبة الشديدة. وكانت المخابرات الألمانية تتعجب

من إخلاص بويدز وعدم محاولته الإشارة الى اعتقاله مع شبكته من قبل
الالمان . وبتاريخ ٢٧ آذار/ مارس وصلت اشارة من لندن تطلب منهم انتظار وصول
الطائرة القادمة من لندن وهي تحمل المندوب الجديد والمعدات . .

في الساعة الحادية عشرة ليلاً، انتظرت عدة سيارات صغيرة في غابة
بالقرب من الموقع المحدد لهبوط الطائرة التي تأخرت ساعتين عن موعدها،
وهبطت لمسافة بسيطة عن سطح الأرض في المكان المحدد وألقت خمس
مظلات، أربعة منها تحمل صناديق العتاد، والخامسة تحمل المندوب الجديد
وهو ضابط لاسلكي . ثم عادت الطائرة من حيث أتت، وبعد دقائق كان
الضابط والعتاد في حوزة المخابرات الالمانية . وكلف بويدز بالاتصال بلندن
للإعلام عن وصول المندوب الجديد والعتاد . .
وهكذا فعل . .

مضت عدة أسابيع بعد وصول المندوب الجديد ضابط اللاسلكي
والحالة هادئة . لكن المخابرات الالمانية كانت تخشى أن يكون البريطانيون قد
كشفوا الخدعة، ثم علمت المخابرات الالمانية أن قيادة المخابرات الهولندية
البريطانية ومركز لندن لا تزال تتصل ببعض الفدائيين وفرق المقاومة . واستمع
الانخصائيون الى إذاعات سرية جديدة تبث من منطقة «اوترخت»، كما عثر
على جثة فدائي بريطاني في منطقة «هولتن» كان قد قتل على الصخور عند
هبوطه بالمظلة، وعثر في جيوبه على ورقة سرية سجل بها مراكز خمس
محطات إذاعة سرية وشيفرة جديدة لكي يذيع لها . . عند ذلك رسم «اريك
فانتر» خطة لكشف باقي العملاء والاستيلاء على هذه المحطات . . . فتركت
الجثة على حالها، وشدت المراقبة حولها حتى حضر اثنان من الفدائيين
لدفنها، والاستيلاء على ما في الجيوب من الأوراق . فاعتقلا، وعثر معهما
على شيفرة ثانية وجديدة . ومن ثم اعتقلت باقي المجموعات . وأخذت
المخابرات الالمانية تذيع الى لندن من الشيفرة الخاصة بالمحطة الجديدة،
وانطلقت الخدعة على الانكليز . وفي نفس اليوم اطمأنت لندن، وأخبرت

الالمان عن وصول فوج جديد من الفدائيين مع كمية كبيرة من العتاد والمؤن الى موقع معين. . واعتقل الجميع، لكن لندن أبلغت عن وصولهم سالمين. . واستمر الاتصال، ثم أخبرت لندن أن ضابط الارسال لقي حتفه، وأنه يجري تدريب غيره لكي يحل محله، فوافقت حالاً. وهكذا أصبح لدى المخابرات الالمانية ثلاث شيفرات للاتصال بلندن. ثم أخذت المخابرات الالمانية تتخلص من الانكليز واحداً واحداً، بعد أن تزعم للندن بأن الشكوك أخذت تحوم حولهم، فتوافق لندن على تغييرهم في الحال، حتى أصبح أغلب مذييعي المحطات السرية المستولى عليها، من الالمان. وأصبحوا يديرون أجهزة الارسال والاستقبال كأحسن ما يكون ضباط اللاسلكي. وكانت المخابرات الالمانية تخشى في هذه الحالة أن يكون البريطانيون قد قاموا بتسجيل أصوات عملائهم قبل إرسالهم، وبذلك يكتشفون الخدعة الالمانية. ولكن مع الأسف لم يجر شيء من هذا، اما لعدم اهتمام المسؤولين في المخابرات البريطانية بهذه الناحية، أولعجزهم عن تمييز الأصوات. واستمر الالمان في خداعهم حتى أصبح لديهم بعد شهور، أربعة عشر شيفرة اتصال يقوم بالاتصال بموجبها الضباط الالمان. . وتوالى إرسال المندوبين وكميات كبيرة من العتاد من أسلحة وذخائر وأجهزة لاسلكية جديدة. .

والقيادة في لندن لم تنتبه الى هذه الخدعة ولا الى مصير عشرات المندوبين الذين يقعون تباعاً بين يدي الالمان. . ومما زاد في عملية الخداع هذه المدة التي وصلت فيما بعد الى سنتين، ان المخابرات البريطانية لم تكن في حينه بمستوى إرسال مندوبين سريين في أوقات متفاوتة للتأكد من حسن عمل المندوبين السابقين، وإلا كان من الممكن كشف خدعة الالمان هذه منذ فترة طويلة. .

ومع سير العمل وتكرار المهمات ومتابعة خداع الغستابو للمخابرات البريطانية، عهدت لندن في أحد الأيام الى المسؤولين في محطة (ر. ل. س) القيام بمهمة خطيرة تتعلق بنفس المحطة اللاسلكية في

«كوتوجك». وهذه المحطة كانت تستخدمها البحرية الألمانية للإتصال مع غواصاتها المنتشرة في المحيط الاطلنطي، فأجابت المحطة (المخابرات الألمانية) بأن هذه المهمة سوف تكون سهلة وأنهم في طريق التنفيذ. ولكي يكون الأمر طبيعياً أبلغت لندن في اليوم التالي بأن مهمة سفينة محطة «كوتوجك» باءت بالفشل مع الأسف، وأن عناصر المهمة فقد منهم خمسة وجرح اثنان عاونهم رفاقهم بسبب وجود حقل ألغام حول منطقة المحطة وبغية جعل الأمور طبيعية أكثر، أخبرت لندن في الصباح بأن اثنين من المفقودين تمكنوا من العودة سالمين بعد جهود عظيمة، وأبلغوا عن وفاة رفاقهم الثلاثة وأن الألمان قد شددوا الحراسة «بعد هذه المحاولة». وردت لندن بأنها تأسف للخسائر التي لحقت بالفرقة وطلبت عرض ما تراه مناسباً لتذليل تلك العقبات بسبب إصرارها على سفينة المحطة..

وإذا تعمقنا في مضمون مثل هذه الأمور، نجد أن المخابرات وأعمالها هي المخابرات في كل زمان ومكان، لا تتأخر عن القيام بأي عمل من شأنه استفادة الدولة منه وبالتالي القوات المسلحة، خصوصاً في أوقات الحرب. وهذه الواقعة عن الخدعة الألمانية خير دليل على عمل المخابرات. فقد أوعزت المخابرات الألمانية بعد أيام من محاولة سفينة محطة «كوتوجك» البحرية الى احدى الصحف بنشر خبر يقول بالحرف الواحد:

«أحبطت محاولة غادرة لسفينة احدى المحطات اللاسلكية الكبرى قامت بها عناصر إجرامية قتل منها ثلاثة ولاذ الباقيون بالفرار. وبعد فحص المواد المتفجرة تبين أن لأعداء البلاد يدا في هذه المحاولة الغادرة. وضح ما توقعه جهاز الغستابو من نشر هذا الخبر، حيث وصلت الصحيفة التي نشرته الى لندن عن طريق احدى الدول المحايدة التي تصلها الصحف الهولندية بطبيعة الحال. وبعد أسبوعين اتصلت لندن بالمحطة (ر. ل. س) وهنأتهم على محاولتهم لتحطيم المحطة، وزادت لندن بأنها قررت منح المدير «الكابتن بويدز» وساماً رفيعاً تقديراً لجهوده. ويعتبر هذا الوسام بلغة المخابرات

من حق المخابرات الألمانية المعروفة «بالغستابو» ..

واستمرت الاتصالات والأعمال الوهمية، حتى أبلغت لندن أنها بصدد إرسال مندوب جديد يدعى «جامبروز» الى هولندا ومعه فرقة من المواطنين الذين رغبوا في الاشتراك لتحرير وطنهم هولندا. وكانت تعليمات لندن تقول أن هؤلاء المتطوعين سوف يقومون بتأليف فرقة للمقاومة يتألف كل منها من مائة رجل ..

قامت المخابرات الألمانية باعتقال الجميع لدى هبوطهم مع معداتهم. وكان عليها أن تخبر لندن بأنباء وصولهم ونشاطهم، فاتصلت بلندن زاعمة أن بعض المخبرين كانوا مدسوسين بين «جامبروز» وفرقة فأوجدوا التفرقة بينهم. ولكن «جامبروز» تابع مهمته بترتيب الفرق بعد أن تخلص من المدسوسين. ولمتابعة الخدعة، طلبت المخابرات الألمانية من لندن إرسال مدربين فنيين للقتال واللاسلكي .. فأرسلت لندن في شهر تشرين الثاني سبعة عشر فنياً بينهم خمسة ضباط لاسلكي مع أجهزتهم الجديدة ولكل منها ذبذبة خاصة. اعتقلوا جميعاً، وزاد الألمان من خدعتهم حيث أخبروا لندن بأنضمام ١٥٠٠ متطوع هولندي الى فرق المقاومة ويجري تدريبهم حسب التعليمات، وطلبوا إرسال ملابس وأحذية جبلية وكميات من المؤن (علب لحم محفوظ - شاي - تبغ - الى آخره) وكعادة لندن سارعت بتلبية الطلب وإرسال ما زنته عشرة أطنان من هذه الطلبات بواسطة الطائرات ..

نظراً لاستمرار هذه الخدعة لمدة سنتين، كان على جهاز «الغستابو» أن يوافي لندن دورياً بأنباء وهمية عن تدريب ونشاط الفرق. ونظراً لتعدد محطات الإرسال والشفرة، وخشية كشف الخدعة، فقد أعلنت المحطة الرئيسية (ر. ل. س) لندن بأن بعض المحطات سوف تتوقف عن الاتصال لضرورة الأمن. وصدقت لندن وأمرت بوقف معظم هذه المحطات مما تسنى للألمان الاستمرار في خدعتهم، وهم مطمئنون. حتى وصل مندوب انكليزي جديد يدعى (آري) وقد اعتقل فور هبوطه كالعادة فطلب من الألمان أن يسمحوا له

بأن يتصل بلندن ليقول لهم جملة اتفق عليها مع المسؤولين هناك وهي «قد سافر الاكسبرس في الوقت المحدد» وأكد أن عدم إذاعته هذه الجملة بنفسه يكون دليلاً على أنه وقع في أيدي الالمان.

وخشيت المخابرات الالمانية أن يكون العكس هو الصحيح، أي أن معنى هذه الجملة بالذات أنه وقع بالأسر، فوضعت في السجن وأذاعت في الوقت المحدد رسالة الى لندن جاء فيها: «لقد وقعت حادثة مؤسفة لـ «آري» وهو فاقد الوعي، وقرر الطبيب الفاحص أنه مصاب بالارتجاج في المخ» وبعد يومين أرسلت الى لندن «تحسنت حالة «آري» وهناك أمل في انقاذه» وتمة للعبة أرسلت بعد يومين آخرين: «أن آري قد توفي فجأة» ومع الأيام طلبت لندن أن يرسل اثنان من المندوبين للتشاور معهم. وأسقط في يد المخابرات الالمانية هذه المرة لكنها استمرت بجرأة في الخداع فأخبرت لندن أن بالإمكان إرسال ما تطلبه ولكن طريق العودة غير مأمون بسبب انتشار الحراس في كافة المناطق. فعادت لندن وطلبت تحديد أنسب الأماكن لهبوط طائرة تخطف مندوباً واحداً فقط للتشاور.

وأجابت المخابرات الالمانية باستحالة ذلك لأن أنسب مندوب لديهم قتل في غارة المانية على «روتردام» فالغت لندن طلبها وأرسلت فريقاً جديداً من المندوبين بإشراف «غولف غروب» فاعتقل الفريق، واتضح أن مهمته الأولى هي البحث عن طريق آمنة لمساعدة الراغبين في العودة الى انكلترا. وتشاء الصدف أن يقع طياران انكليزيان بين يدي المخابرات الالمانية ويرضيان بالتعاون معهما فأبلغت لندن بأنها هيأت طريقاً آمناً حتى باريس، وهي سوف ترسل رسولين للتشاور حسب طلب لندن من قبل، وكان الرسولان هما الطياران... أرسل حسب الاتفاق... وبعد أسبوعين أرسلت لندن تهنيء بوصول الرسولين سالمين، وتشكر جميع الفرق على نشاطها في سبيل تحطيم العدو... وبعد ذلك أخذت المخابرات الالمانية تخدم الحلفاء خدمات حقيقية غير ضارة استرسالاً في خداعهم. فكانوا يتعهدون بعض

الطيارين الذين تسقط طائراتهم في سهول وهضاب هولندا وبلجيكا، ويوصلونهم عبر طرق وعرة الى الحدود الاسبانية باعتبار من أوصلهم أنهم من رجال المقاومة. وكانوا يذيعون هذه الخدمات عبر محطات الارسال ذاكرين أسماء ورتب الذين ساعدوهم وأنقذوهم من الموت المحقق..

ومع الأيام خشيت المخابرات الالمانية من افتضاح أمرها لدى الحلفاء بسبب عدم توافق المعلومات التي تحصل عليها من الدول المحايدة عن أعمال التخريب المزعومة التي ترسلها لهم، فعمدت الى افتعال حوادث تخريب «مصغرة» فكانت تضع أكوام الورق والأقمشة والمتفجرات الفاسدة قرب محطات السكك الحديدية، وتضرم فيها النار، ويرتفع اللهب عشرات الأمتار.

وتنشر هذه الحوادث في اليوم التالي في الصحف... ومن ثم في لندن. كما قامت المخابرات الالمانية لنفس الغرض بنسف سفينة المانية في وضح النهار (وكانت هذه السفينة ناقلة قديمة محطمة لا تصلح لشيء) وقد وصل خبر نسفها الى لندن فهنأت «المخابرات الالمانية» باعتبارها من أعمال فرق المقاومة...

واستمرت عملية الخداع هذه ستين قامت بها ونفذتها المخابرات الالمانية بواسطة الكابتن «اريك فانتر» وباتقان تام دون أخطاء حتى تاريخ ٣١ آب/أغسطس ١٩٤٣، حيث تمكن اثنان من المندوبين المعتقلين من الفرار ليلاً، وعرف الالمان أنهما في طريقهما الى لندن، وسوف يكشفان كل شيء فأسرعوا للإبلاغ الى لندن مع اقتراح «فانتر» بوقف هذه العملية وأجيب على طلبه. وسميت هذه العملية من أولها لآخرها «عملية القطب الشمالي». وأوعز الى العشر محطات التي تعمل بنفس الوقت بشيفرات مختلفة ومعتمدة من لندن بإذاعة هذه البرقية: «الى المخابرات البريطانية» نشر الآن أنكم تحاولون أن تديروا المعركة السرية في هولندا بدون معاونتنا... ونحن نأسف لذلك... فقد بذلنا كل ما بوسعنا لخدعتكم... وكنا وكلاؤكم الأمناء طيلة هذه

المدة في هذا البلد، ونؤكد لكم أنه ما فكرتم في إرسال مندوبين جدد لزيارة هذا البلد أو العمل به فإننا سوف نستقبلهم ونرعاهم ونرحب بهم أجمل ترحيب.. الامضاء: «المخابرات الالمانية»..

وأصيبت المخابرات البريطانية بالذهول لعظمة هذه الصدقة.. ولم يعد للندم نفع في مثل الحالات... وما فات مات...

المراجع

- ١ - د. حمدي مصطفى «حرب الجاسوسية»: دار الوثبة. دمشق. دون تاريخ. ص ٥ و ٨٤.
- ٢ - سعيد الجزائري «المخابرات والعالم». مكتبة النوري. دمشق. الطبعة الثانية. ص ٣٢١ - ٣٢٨.

صراع الدهاء بين رجال البحر

منذ أن ظهر الانسان على سطح الأرض، برزت موهبته وتفوقه على سائر الكائنات والمخلوقات الأخرى. حتى أصبح بحق سيد هذه الأرض وما عليها. وفي الوقت الذي جبل فيه الانسان على الطمع، فإنه لم يكتف بسيادته على الأرض وحدها، بل تعداها الى السيطرة على الفضاء، حتى أن البحر والمحيط لم يفلت من قبضته، ولم يعد هناك بحر اسمه «بحر الظلمات» ماخراً عبابه ومحطماً جميع المصاعب التي اعترضت طريقه بهدف جعله مستقراً وممراً الى دنيا جديدة..

وعلى هذا الأساس وجدت الأساطيل البحرية كما وجد الدهاء من رجال البحر. وكم من معركة كبرى حسمتها الأساطيل لتقلب موازين القوى وتؤثر على سير الحرب بشكل عام. ولم تكن البارجة الالمانية المعروفة بـ «شارنهورست» التي أغرقتها السفن الحربية البريطانية في الحرب العالمية الثانية، سوى حلقة صغيرة في سلسلة الصراع بين الأساطيل أو بين دهاء البحر..

فما هي هذه البارجة المسماة «شارنهورست»؟ وما هي أسرار إغراقها؟

ربما كان النازيون على علم بتلك القافلة البريطانية التي تشق طريقها الى «مرنسك» حول أقصى نقطة في شمال النرويج، وربما كانوا قد أنفذوا البارجة «شارنهورست» في جوف الليل الى تلك المنطقة القطبية عساها تقع على شيء فيها. ولكنها خرجت على كل حال من مرساها في خليج نرويجي، وقد عقد لواؤها «للأميرال باي».

توفرت لهذه البارجة - وحمولتها ٢٦ ألف طن - جميع المقومات

المطلوبة للإغارة على قافلة. فقد وضع تصميمها لتكون أسرع من أية بارجة بريطانية، ومدافعها الكبيرة تسعة من عيار احدى عشرة بوصة. فهي اذ تنبذ أي طراد بريطاني معروف في تلك الفترة، ومدافعها الثانوية تتيح لها اذا ما توسطت قافلة ما، ان تمعن في إغراق سفنها كما يمعن الثعلب في قتل الفراخ اذا ما تسلل الى حظيرة الدجاج..

خرجت «شارنهورست» مساء يوم عيد الميلاد في الوقت الملائم تماماً، وقد أخذ الفجر يرسل ضياء شاحباً على مياه البحر المظلمة في تلك الأصقاع الشمالية. فالتقت بالقافلة وكانت حمولة سفنها قرابة نصف مليون طن. وكان في إمكان «شارنهورست» أن تنزل بها من الضرر في الساعة التالية ما يستطيعه اسطول الغواصات كله في مدى ستة أشهر..

كانت القافلة البريطانية متجهة شرقاً على ١٥٠ ميلاً شمال الرأس الشمالي. وكان يحرسها من خطر الغواصات حلقة من سفن الكورفيت والمدمرات والسفن الحربية الصغيرة، وكان «لأميرال بيرنت» - قائد الاسطول الحارس - ثلاثة طرادات هي: بلفاست، ونورفوك وشفيلد، فعين لها مكاناً الى الجنوب الشرقي من القافلة، ومن هذه الناحية أقبلت بارجة «الأميرال باي»، شارنهورست. وتراءت الدارعة والسفن الحربية البريطانية، على مسافة ستة أميال. وكان في السفن البريطانية تلك العين الساهرة التي تحملها كل سفينة من سفن المملكة المتحدة. فكانت تسهر على سلامتها، فأندرت أول نذير، وأخذت تبين مكان ذلك الدخيل الذي لا يكاد يشك في أنه عدو، وتنبىء بوجهته. وكانت المدافع تسدد وفقاً لإرشادها وضباط المدفعية ينتظرون اللحظة المناسبة لقذف نارهم..

واستدارت القافلة بناء على أوامر القائد، على حين انطلقت الطرادات الثلاثة الى ملاقات العدو. وكان في وسع مدافع «شارنهورست» الجانبية أن تقذف من القنابل ما يزيد وزنه على ما تقذفه الطرادات الثلاثة مجتمعة. وأن طراداً تصيبه قذيفة مدفع قطره ١١ بوصة ولا يدمر فهو ولا بد طراد محدود،

على حين تذود دروع «شارنهورست» السمكية قنابل الطرادات عن أحشائها إلا ما أصابها عن كذب. فالصراع لا تعادل فيه على ما يبدو، ومع ذلك فقد اندفعت الطرادات الثلاثة نحو البارجة الألمانية «شارنهورست» ..

وفي نور ذلك الصباح، كنت ترى الماء الذي يشقه مقدم «شارنهورست» المسرعة وإن غابت أجزاءها العليا المربدة، وأطلق مدفع من الجانب البريطاني، فارتسمت في السماء أقواس ساطعة من الضوء الأبيض، قبل أن تنفجر القنبلة المنيرة فوق البارجة فأضاعت البحر حولها في دائرة قطرها ميل، ثم أطلقت الطرادات نيرانها وصفرت القنابل في انطلاقها. ورأى ضابط المراقبة في الطراد «نورفوك» بمنظاره وميضاً باهراً أخضر على هيكل «شارنهورست» ساعة وقعت القنابل عليها. وكانت مدافع «نورفوك» من عيار ٨ بوصات، ومدافع الطرادات الأخرى من عيار ٦ بوصات فمن المحتمل أن تكون «شارنهورست» قد أصيبت ..

واستدارت الدارعة مسرعة فأخطأتها القنابل التالية، ثم مرفت من الدائرة المنيرة حولها واختفت. ولقد قضى «الأميرال باي» نحيبه، فلن تعرف الدوافع التي حدثت به الى الفرار، وليس من المحتمل أن يبلغ هيّاب رعديد مرتبة أمارة البحر في الأسطول الألماني، ولعل «باي» كان ينفذ خطة وضعها من قبل. فالقافلة هي هدفه، وقد عرف الآن أين كانت القوة الرئيسية التي تحرسها، ففي وسعه أن يقدر في شيء من الدقة أين سفن القافلة فليبتعد متلفحاً بالظلام ثم ليسدد إليها ناره. وكان على أمير البحر «بيرنت» - على الطراد بلفاست - أن يدرك ما ينويه «باي»، وأين يهاجم القافلة؟ ومتى؟ ففي طاقة بارجة سريعة كهذه أن تدور حول القافلة في ساعة، وقد تهجم عليها من أية ناحية وتغرق منها في ١٠ دقائق سفناً كثيرة. فعلى «بيرنت» وهو واقف في المرفأ العالي المكشوف على ظهر الطراد بلفاست ورشاش الماء يتطاير من حواليه وهي تمخر عباب البحر الزاخر بأقصى سرعتها أن يقدر ويحكم التقدير لأن في الخطأ خطر عظيم ..

وفي منتصف الساعة الواحدة، أي بعد ثلاث ساعات من اللقاء الأول في الجنوب الشرقي عادت «شارنهورست» الى الظهور في الشمال الشرقي، فألقت «بيرنت» وطراداته أمامها. «فيرنت» قد أحكم التقدير، أما ما جال في خاطر «باي» حين لاح له شبح هذه الطرادات الثلاثة العنيدة، على حين كانت جميع الاحتمالات تشير الى وجودها على بعد عشرين ميلاً، فيمكن أن نستشفه من خلال ما فعل في تلك اللحظة. فقد أطلقت «شارنهورست» فجأة عدة مدافع دفعة واحدة، فانفجرت قنابلها على مؤخرة الطراد «نورفوك» ثم أدبر مسرعاً الى قاعدته..

لم يكن «باي» يشك في أن «بيرنت» قد أرسل منذ ثلاث ساعات إشارات لاسلكية الى الأميرالية البريطانية والى الأسطول البريطاني الرئيسي ينبئهما بخبره. ولم يكن يشك في أن البريطانيين لن يتوانوا عن إرسال السفن والطائرات للهجوم على بارجة عظيمة مثل «شارنهورست»..

بل ان الخطر كان أعظم مما يتصور. فعلى نحو ١٥٠ ميلاً في الجنوب الغربي منه، كانت قوة بحرية تسير بسرعة لتقطع عليه خط الرجعة - وهي قوة تستطيع أن تجعل سفينته ركاماً من حديد - وكانت مؤلفة من البارجة «ديوك اوف يورك» والطراد «جاميكا» المرافق لها وأربع مدمرات لحراستها. وكان لواؤها معقوداً للأميرال السير «بووس فريزر» قائد أسطول الجزر البريطانية..

ويندر من يعلم كم مرة نصبت البحرية البريطانية مثل هذا الفخ، وكم مرة خرجت قوة مؤلفة من بوارج وسفن أخرى تشق طريقها الى روسيا في خط مواز لخط سير القافلة وعلى مسافة غير يسيرة منها، عسى أن تلتقي بقوة نازية بحرية تخرج من النروج. وهذا أول جزاء جوزي به العزم والمثابرة..

وكانت البارجة «ديوك اوف يورك» على نحو مئتي ميل حين تلقت اشارة «بيرنت» الأولى، وكانت «شارنهورست» تفوقها سرعة، وعلى «فريزر» أن يضمن قطع الطريق بينها وبين قاعدتها. فاتجه الى أقرب نقطة اليه على خط مستقيم بين آخر مكان ظهرت فيه «شارنهورست» وقاعدتها..

ولما أرسل «بيرنت» إشارته الثانية بعد أن عادت «شارنهورست» الى الظهور عرف «فريزر» مكانها بدقة، فهي لم تزل على بعد ١٥٠ ميلاً . .

وآن الأوان «لبيرنت» أن يأتي بطريدة أخرى كانت «شارنهورست» بعد أن أصابت «نورفوك» قد اتجهت جنوباً، فبادر «بيرنت» يقتفي أثرها، اذ كان يحب أن يحاط «فريزر» علماً بمسيرها فعلى «بيرنت» أن يظل متصلاً بها. بيد أن الاتصال ببارجة مدافعها من عيار ١١ بوصة أمر يسهل طلبه ويشق تنفيذه، فإن في طاقة تلك المدافع أن تصيب هدفاً وراء الأفق، ولا يحتاج الأمر الى عدة طلقات دفعة واحدة تقع على أحد طرادات «بيرنت» لتغرقه . .

وبعد ظهر ذلك اليوم الذي سادته القلق والانتظار لم يأت «فريزر» شيئاً يكشف عن مكانه، فإن همسة واحدة من جهاز الراديو على سفينة تكفي لتدل «شارنهورست» على وجود قوة بريطانية أخرى في جنوبها. على أن الشكوك تبددت فجأة في منتصف الساعة الخامسة اذ قطعت «ديوك اوف يورك» صمتها اللاسلكي بأمر من «فريزر» الى «بيرنت» أن «أضىء مكان العدو بقنبلة منيرة» واذ ذاك أيقنوا أن «فريزر» كان على رمية منهم، وأن ضباط الملاحة على بارجته أحكموا التوجيه الى طريدتهم، وقد حسبوا حساباً دقيقاً لسرعة بارجتهم وسرعة تيارات البحر والرياح واستدلوا على مكان «شارنهورست» من بيانات «بيرنت» . .

لقد خيم الظلام. و«شارنهورست» على يسار «فريزر» والطراد بلفاست على ثمانية أميال يحد في أثرها. وانطلقت من أحد مدافع بلفاست قنبلة من نار بيضاء تعالت في الفضاء الأسود، وانفجرت عالية فأضاءت الظلمات بنورها الوهاج . .

في وسط ذلك الفيض من النور لاحت شارنهورست، ورأى المراقبون وضباط المدفعية في اسطول «فريزر» أجزاءها العليا بارزة للعيان مرتسمة على صفحة الأفق البعيد. وصبت خمسة مدافع من عيار ١٤ بوصة نيرانها في دوي

صاحب منقطع النظر، وقذفت ثلاثة أطنان ونصف طن من حمم الصلب والمواد المتفجرة على هدفها. وظلت القنابل تهدر في الجو عشرين ثانية ومرة في مسيرها المقوس فوق إحدى المدمرات المرافقة للبارجة «ديوك أوف يورك» فسمعها من على المدمرة كأنها قطارات سريعة تنهب الأرض نهباً. ووقعت القنابل قاب قوسين أو أدنى من شارنهورست، فاستطار الماء أعمدة ذهبت في الجو مثني قدم وسجلت الطلقة التالية بعد نصف دقيقة إصابة مباشرة. .

فأدار «باي» دارعته نحو اليسار، وانطلق بها الى الشرق مسرعاً يتغني الأمان في الظلام المخيم، فاندفعت في أعقابها البارجة (ديوك أوف يورك) وأصيبت شارنهورست مرة بعد مرة. بيد أن أصابتها لم تكن من الخطر بحيث تخفض سرعتها من فورها. وقبيل منتصف الساعة السابعة كانت «شارنهورست» خارج مرمى المدافع محطمة مهشمة تضطرم فيها النيران، ولكنها آمنة - الى حين - مدافع «ديوك أوف يورك» . .

ولم تكد مدافع «ديوك أوف يورك» تسكت عن دمدمتها حتى التمع في الأفق البعيد ضوء نيران المدافع من جديد. كانت المدمرات الأربع المرافقة للبارجة «ديوك أوف يورك» قد أدركت بسرعتها المتفوقة البارجة «شارنهورست» .

فهجمت اثنتان من اليمين واثنان من اليسار لتسد طريق النجاة على «باي» قبل فوات الوقت. وأطلقت «شارنهورست» نيران مدافعها الثانوية عليها، فكان دفاعها يستوقف النظر. منها هي ذي شعلة من اللهب الأحمر البرتقالي الخارج من فوهات مدافعها ومن هذه النواة المتأهجة ينطلق عدد عديد من خطوط الرصاص القصاص على أنه من الصعب وقف مدمرات مندفة بسرعة هائلة. وكانت «شارنهورست» الى ذلك قد أصيبت إصابات بالغة حيث لحقت بمدافعها ونظام مواصلاتها أضرار لا ريب فيها، فكانت نيرانها غير محكمة، فلم تصب من المدمرات المطاردة إلا واحدة. وتابعت المدمرات البريطانية هجومها، ومن على مسافة قريبة حيث سددت طرايبها

الى البارجة الالمانية ثم انشت مبتعدة عنها بعد أن قربت ساعتها . .

أصاب «شارنهورست» عدد من الطرايد اصابات مباشرة، لكنها ظلت عائمة على الرغم منها، وظلت مدافعها تصب ناراً قوية كانت تخطيء الهدف في أكثر الأحيان ولكن كان لها في النفس وقع مهيب . .

ونقصت سرعة «شارنهورست»، فدنّت البارجة، «ديوك أوف يورك» الى المرمى مرة أخرى، وشرعت مدافعها من عيار ١٤ بوصة تدكها دكاً. وكذلك دنا الطراد «جاميكا» المرافق للبارجة «ديوك أوف يورك» الى مسافة قريبة جداً من «شارنهورست». وفي الوقت نفسه وصلت الى ساحة المعركة طرادات «بيرنت» الثلاثة وأربع مدمرات من المراكب الحارسة للقافلة. وفي الظلام الدامس أطبق على «شارنهورست» ما لا يقل عن ثماني مدمرات وأربعة طرادات وبارجة كبيرة. وحينئذ حان الوقت لليد العليا المدبرة أن تتولى الأمر، فصدرت أوامر «الأميرال فريزر» بلغة واضحة: «افسحوا ميدان الهدف إلا من سفن الطريد ومدمرة واحدة بنور كشاف» فانحرفت جميع السفن ما عدا اثنتين ووجهت مدمرة أنوارها الكاشفة الى حطام «شارنهورست»، وكأنها رماح مشرعة من النور الأبيض الناصع تنفذ في الظلماء واقترب الطراد «جاميكا» للقضاء عليها. واستدار نحوها وقذف عدداً من الطرايد دفعة واحدة، فانفجرت انفجاراً مريعاً حين أصابت الهدف.

وحين انقشع الدخان بدت «شارنهورست» آخر مرة مائلة على جنبها ولم تزل نيران ذخيرتها تندلع من جوفها، ثم أطبق عليها الدخان مرة أخرى وغابت في قرار اليم، على حين هرعت الطرادات البريطانية الى التقاط الناجين. على أن تلك النيران كانت قد أحرقت أكثر من ألف رجل. وهكذا ان أكبر الدارعات الالمانية خرجت محطمة. ومن الممكن أن يكون الفوهرر هتلر وحاشيته من النازيين، قد تأسفوا وحزنوا على دارعتهم ورجالها البحريين. إلا أنه من المؤكد لم يتأسفوا ولم يحزنوا مرة واحدة على ملايين الضحايا والجرحى والمفقودين والمشوهين الذين أحرقتهم نار حربهم العالمية الثانية.

وكان طبيعياً أن يكون مصيرهم كمصير رجالهم من الدارعة «شارنهurst» .
و قليل جداً في هذا العالم من الذين اکتوا بنار هذه الحرب المدمرة ،
قد تأسف أو بكى على المصير الذي لاقاه النازيون والفاشيون بعد هزيمتهم
النكراء: وما من ظالم الا سيلى بأظلم . والتاريخ لا يرحم . . .

المرجع

- ١ - س . س . فورستر «كيف أغرقت البارجة «شارنهurst» الالمانية؟» .
ملخصة عن «سترداي ايفنتج پوست» . مجلة «المختار من ريدرز (م)
دايجست» . السنة الأولى . أغسطس / آب ١٩٤٤ . المجلد الثاني .
العدد ١٢ . ص ٢٢ - ٢٧ .

بدعة الصهاينة ومحكمة نورمبرغ

كم هي بليغة فعلاً تلك الحكمة القائلة بأن «العفو عند المقدرة من شيم الكرام». لكن هذا القول لا ينطبق مطلقاً على اليهود التلموديين، أبالسة الجحيم، والأفاعي الرقطاء التي تنتهز أية فرصة ملائمة للغدر والانقضاض. فمنذ فجر التاريخ، وللحروب أعراف وتقاليد يحترمها المتقاتلون، ويعملون بمقتضاها، وإن كانت تتبدل من حين لآخر، ولكنها تظل أبداً ضمن نطاق المثل العليا، وتدور دائماً حول محور الشرف والرجولة. ولذا كان المفروض بالمنتصر الذي استعمل أثناء المعركة أشد أنواع البطش والوحشية، أن يعمد بعدها إلى التعالي عن الصغائر ويتصف بالحلم والشهامة، وأن يعف عن خصمه المغلوب ويرد عنه كل منكر. والتاريخ يحفل بالأحاديث الشيقة التي تروي لنا مدى ما كان عليه أبطال العصور الغابرة من النبـل والرجولة، ومنها مواقف الفراعنة الكريمة من أعدائهم بعد النصر، إذ كانوا يعاملونهم أكرم معاملة، ويجلونهم عن الذل والمسكنة، تقديرًا لما أظهروه من البطولات في المعركة. ومنها أيضاً مواقف أبطال الفرس واليونان والرومان على من تغلبوا عليهم. هذه المواقف التي كانت تبلغ حد إعادة الملك المغلوب إلى عرشه، والقائد المهزوم إلى قيادته. إذ كان المفهوم السائد آنذاك هو إكرام البطل الشجاع إن غالباً أو مغلوباً. أما ما يرويه التاريخ عن النبي محمد (ﷺ) في هذا المضمار فهو من أروع الأمثال في كل ما قيل وسيقال عن مواقف الشهامة والشرف، وخصوصاً مع اليهود الذين خانوا عهده مراراً، وكذلك مع عدوه أبي سفيان عند انتصاره على قريش، ما كان إلا ليذكر الناس بأن لا انتقام ولا تشفي عند الاستسلام. أما صرخة عمر بن الخطاب التي أطلقها في وجه قواده

ليحدّ من غلوائهم، والتي قال لهم فيها: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟». هذه الصرخة ما زالت حتى اليوم تعتبر آية من الآيات في سجل التاريخ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على ما كان عليه سادة العرب من الاحترام لحقوق الناس، والتقدير لكرامة الانسان، حتى وإن كانوا من أخصامهم في الأمس. وكذلك الحال مع البطل العربي الكبير صلاح الدين الأيوبي الذي أرسل الى عدوّه ريكاردوس الملقب بـ «قلب الأسد» طبيبه الخاص، لمعالجته بعد اصابته في الحملة الصليبية التي كان على رأسها ضد المسلمين في بلاد الشرق. كما عامله معاملة نابعة من كرامة العرب وأخلاقهم، يعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء.

هذه المواقف الرائعة التي يزخر بها التاريخ العربي، هي التي دفعت بكرام المؤرخين الى الاعتراف بأن التاريخ لم يشهد فاتحاً أعدل من العرب. وعلى العموم فإن كافة الأمم والشعوب التي بحث عنها التاريخ القديم، كانت تراعي نسبياً هذه التقاليد والأعراف وتعمل بموجبها، اللهم إلا اليهود الذين انفردوا بين شعوب الأرض في انكارها، واستنبطوا سنناً وشرائع خاصة بهم لم يشهد التاريخ لها مثيلاً من قبل. حتى أن مؤرخيهم يفاخرون بأنهم كانوا يدمرون المدن التي يحتلونها، ويعذبون كل من يقع في أسرهم، ويطبقون شريعة القتل العام على جميع السكان، وهي تعترف بأن اليهود احتلوا الجبال الفلسطينية بفضل تطيقهم لهذه الأساليب الوحشية التي تستنكرها جميع شعوب الأرض. حتى أن القرون الوسطى وما أعقبها من الأزمان، صقلت نفوس الشعوب أكثر فأكثر، ودفعت بها الى إحداث قواعد وشروط تحدد العلاقات بين الغالب والمغلوب.

وفي العهود الأخيرة، أضيفت الى تلك الشروط اتفاقات جنيف الأربعة المشهورة، المحددة لحقوق الأسرى والمصابين. وأسوأ هذه المفاهيم ما كانت لتتعدى حدود فرض استعمار الغالب على المغلوب، وكل ذلك كان بغية ابقاء الشرائع الحربية ضمن نطاق المفاهيم المتجانسة مع تطور الحضارة

والثقافة الانسانية . . ولم يكن في تفاصيل هذه الشروط الحربية ما يشير الى اباحة محاكمة قادة الجيوش المهزومة أو معاقبة الأسرى وإساءة معاملتهم أو قتلهم أو التنكيل بهم . ولهذا رأينا بريطانيا تعامل نابوليون بعد انتصارها عليه وأسره في ساحة القتال، أكرم معاملة رغم كل ما أذاقها من الهزائم . كما أن الروس بعد انتصارهم على القائد التركي عثمان باشا، الذي كبدهم أعظم الخسائر، عاملوه معاملة الأبطال تقديراً لشجاعته وصموده في وجههم أمداً طويلاً . . .

وفي الحرب الكونية الأولى لم يقع ما يغير هذه التقاليد العريقة، رغم معاهدة فرساي التي فبركتها العقلية الصهيونية حتى جاءت بنصوصها وشروطها القاسية بحق الالمان . وعندما سئل تشرشل عن رأيه فيها أجاب : « انها ليست معاهدة سلام، بل هدنة مدتها عشرون عاماً » . وبعد عشرين عاماً بالضبط قامت الحرب العالمية الثانية ؛ وقد كان العالم يظن خلالها أن تقاليد الشرف والشهامة هي التي ستنظم الأمور بعد انتهائها . ولكن الناس فوجئوا قبيل انتهاء الحرب بجنوح أميركا الى سنة القتل العام وذلك عندما ألقت قنابلها الذرية على اليابان، وفتكت بعشرات الآلاف من العزل الأبرياء في غضون ثوان معدودات، بأمر من الرئيس الأميركي « هاري ترومان » الماسوني وصديق حاييم وايزمن . فهاهم الأمر، واستعظموا إقدام الأميركيين على هذه الجريمة النكراء . وقبل أن ينتهوا من التفكير بها، اذا بهم يفاجأون بأخرى أشد هولاً وأكثر خطراً على مستقبل ومصير الانسانية، ألا وهي جنوح الحلفاء الى محاكمة المغلوب كمجرم حرب، وظهرت للوجود ما أسماها الحلفاء بمحاكمة نورمبرغ، وعلى أثرها سمع الناس عن الذين أطلق عليهم اسم مجرمي الحرب تأتي بهم هذه المحكمة الغربية من نوعها، ليمثلوا أمامها مكبلين بالأصفاد لتقاضيهـم على مسلكهم في جبهات القتال .

وإزاء هذه البدعة الجديدة نؤكد بأننا لسنا ضد محاكمة النازيين والفاشيين الذين أغرقوا العالم في بحر من الدم والكوارث، ولكننا نتساءل عن

الأسباب التي دفعت بالحلفاء الى تبني هذه البدعة ومن استنبطها، وعن الظروف التي جعلتها شريعة يؤخذ بها بين عشية وضحاها؟ . وما هو سر هذه المحكمة المسماة «محكمة نورمبرغ»؟ .

يقول المؤرخ التركي المعاصر الجنرال «اتيلهان» في هذا الصدد: «يخطيء من يظن أن الحلفاء أوجدوا محكمة نورمبرغ أو فكروا في ايجادها، أو أن هذه المحكمة وجدت فعلاً لمحاكمة من خرجوا على التقاليد والأعراف والقوانين الحربية، لأن الحلفاء لم يكن لهم مع الالمان أي حساب سوى حساب الغالب مع المغلوب. ولم يكن بين القادة من يمكن اعتباره خارجاً على القوانين والتقاليد أثناء حربه مع الحلفاء. ولكن محكمة نورمبرغ كانت من جملة الأهداف التي حددها مؤتمر بال الصهيوني عام ١٨٩٧، وسعى أعضاؤه وحلفاؤهم أكثر من نصف قرن لبلوغها من أجل اقامة الدولة اليهودية العالمية» . . .

لقد كانت محكمة نورمبرغ، المؤسسة التي عهد اليها بتصفية المقاومة الالمانية، والعقبة الثالثة في طريق أهداف اليهود بعد الدولة العثمانية وروسيا الأرثوذكسية. ولكي تكون محكمة نورمبرغ جاهزة ومحقة لأغراض ايجادها، كلف بوضع مخططاتها اليهودي «صامويل روزنمان» الذي كان يشغل وظيفة المستشار القانوني للرئيس روزفلت، فخط لها المنهاج، وانتقى لها القضاة والمنفذين، وكانوا جميعاً حتى الجلاد من اليهود الموثوقين من قبل الرئيس روزفلت بالذات. فلما انهارت المانيا بعد أن تورطت في حربها مع الروس، سارع اليهود، الى اقامة محكمتهم التي كانوا قد اشترطوا اقامتها ضمن الشروط التي انبثقت عن مؤتمر بالطا.

ولقد كتب عن هذه المحكمة كثير من الكتاب في البلاد الغربية، وأجمعوا على أن كافة أعضائها كانوا من اليهود الصهاينة. وقال الكاتب «موريس بارديش» في كتابه المسمى «محاكمات نورمبرغ» بأن رئيسها المدعو «روبير جاكسون» كان مزوداً من قبل «روزنمان» بأسماء من يجب عليه

محاكمتهم، ويمدد ونوع العقوبات التي كان عليه أن يفرضها بحق كل منهم. و«روزنمان» هو الذي عينه لرئاسة هذه المحكمة لعلمه الأكيد بحب جاكسون لليهود، باعتباره ابن أشهر مدافع عن اليهود في أميركا. وعين له كمستشار حقوقي اليهودي «شولدن كلوك» الذي اشتهر بعداوته للألمان. واختار لهما الماسوني «والش» كمساعد في أمور التحقيق. ولقد اشتهر هذا الأخير بثرائه الفاحش بعد عودته من المانيا. واختير الكولونيل اليهودي «اندروز» رئيساً للهيئة التنفيذية، وهو بدوره اختار جميع مساعديه من بين اليهود. كما أن الأطباء الذين عينوا لمساعدة الدائرة القضائية أمثال الدكتور «دوغلاس مردخاي كيلي» و«غولد نسوهن» و«كاتز» كانوا جميعاً من اليهود الحاقدين على كل الماني في الوجود. وهكذا أصبح مصير قادة الألمان، بل مصير المانيا بأسرها بين أيدي هؤلاء اليهود. ولما كان غرضهم الحقيقي هو الشار والاذلال وليس التحقيق أو اقامة العدالة فقد أذاقوا القادة الألمان كل أنواع العذاب. حتى أن أكثر المعتقلين كانوا ينتظرون ساعة الموت بلهفة ليتخلصوا مما كانوا يتعرضون له من الظلم والمهانة على أيدي جلاديه من اليهود. ولقد روى «جوليوس ستريش» الزعيم الألماني المعروف قصة اعتقاله وتفاصيل معاملته في السجن فقال: عندما أعتقلت في ٢٦ ابريل ١٩٤٦ وزججت في السجن، جرّدي اليهود من كافة ثيابي، وظللت أربعة أيام عارياً تماماً، وعندما كنت أروم النوم كان ينهال علي اليهود ضرباً بالسياط ليمنعوني من الراحة. وإمعاناً في الاهانة كانوا يرغمونني على تقبيل أقدام خدمهم من الزوج، ويقطعون الماء عني، فلما أعطش وأطلب ماء يأتون لي بكأس مليئة بصاقاً ويقدمونها لي، فكان من البديهي أن تمج نفسي هذا الشراب وأرفضه، فينهالون علي ضرباً وركلاً؛ ومن ثم يفتحون فمي بقطعة من الحديد ويقذفون بمحتويات الكأس في فمي. وكم من مرة قدموا لي البول بدلاً عن الماء، فلما كنت أرفض عطاءهم، كانوا يقذفونه في وجهي ويقولون لي أنني لا أستحق شراباً خيراً منه. ولما قرروا إعدامه سيق الى باحة السجن ورفع الى منصة الاعدام حيث لف الجلاد اليهودي «وودز» الحبل حول عنقه. وعند ذلك رفع جوليوس قامته

الجبارة، واتجه نحو المتفرجين وصاح بصوته الجمهوري الذي هز جنبات السجن قائلاً: «انظروا كيف ينتقم قضاء نورمبرغ (المثلث اليهودي) مني، وكيف يطبقون تعاليم التلمود. إن حقدكم الأسوأ هو الذي يدفعهم لقتلي دون حق. فلتكن مشيئة السماء، وكل ما أرجوه هو أن يحفظ الله المانيا من كيدهم». ولكن الجلاد اليهودي لم يترك له فرصة لإكمال حديثه فقذف به في الفراغ.

ومن أغرب الجرائم التي ارتكبتها اليهود في المانيا هي اعدامهم الجنرال «دوستلر» في ساحة القتال بعد أسره، بحجة أنه عذب بعض اليهود في أحد المعتقلات عام ١٩٤٣. والماريشال «كيتل» القائد الأعلى للجيش الالمانى تعرض أيضاً لأبشع أنواع العذاب في سجنه، حتى أن اليهود كانوا يأمرؤن الزنوج بضربه ورميه بالأقدار. ولقد شج رأسه عدة مرات قبل أن يعدم، ولم ينقذه من برائتهم إلا هذه الخاتمة المفجعة. وأعمال الضرب والاهانة في سجن نورمبرغ كانت أكثر من أن تحصى. حتى ان الكتاب يعتبرونها احدى التقاليد اليومية التي كانت سائدة في معتقلات نورمبرغ.

أما معاملة الأسرى الالمان فلم تكن أحسن من معاملة من أسموهم بمجرمي الحرب. وفي هذا الصدد يروي لنا المخبّر الصحفي الحربى البريطانى «ليونار موسىلى» الحادثة التالية، فيقول: «عندما كنت في شهر ابريل ١٩٤٥ في مدينة بلسن طلبت زيارة معتقلات الأسرى من جنود الصاعقة (S. S.). وكانت هذه المعتقلات تخضع لقيادة الضباط اليهود. وسمح لي بذلك، وصدف أن مات في ذلك اليوم المشؤوم بعض الأسرى على أثر التعذيب الوحشى الذى تعرضوا له من قبل ضباط اليهود. فأمر الضباط الأسرى من رفاقهم الأحياء بأن ينقلوهم الى حيث يوارون بالجملّة، ودعيت لمشاهدة هذا التسخير المفجع. وكان الجنود قد أمروا بأن ينقلوا كل جثتين معاً. ولما كان هؤلاء التعساء منهوكي القوى من أثر الجوع والتعذيب وغير قادرين على حمل جثتين معاً، فقد عمدوا الى حمل الجثث على

ظهورهم، ورغم كل ذلك كانت بعض الجثث تفلت من أيديهم وتقع على الأرض... عندها كان اليهود ينهالون عليهم بالسياط والقضبان الحديدية ضرباً ولكزاً، وأحياناً يطعنونهم بالحرايب، ولقد قتل كثير من هؤلاء الأسرى من جراء هذه المعاملة وأصيب أكثرهم بعاهات مستديمة.

هكذا يبدو بأن اليهود كانوا قد صمموا على إذلال الشعب الألماني منذ أمٍ بعيد، ولما حانت الفرصة راحوا يتفنون في أعمال التعذيب والافناء تحت ظل محكمة أضفوا عليها الشرعية بفضل مؤازرة الرئيس روزفلت لهم. أما الأغراض البعيدة المدى التي توخّوا تحقيقها من بدعة محاكمة القواد والحكام فهي أخطر بكثير من كل ما يخطر على بال. وتتلخص هذه الأغراض بأن اليهود أرادوا أولاً إرهاب القادة العسكريين في المستقبل حتى لا يعمدوا إلى مناوأة مخططاتهم الرامية إلى استعباد الشعوب، خصوصاً وهم على أبواب الاعلان عن تأسيس دولتهم في فلسطين المحتلة، ولكي يسهل عليهم ثانياً شراء القادة وإخضاعهم لمآربهم، باعتبار أن القادة سوف يفكرون مراراً قبل أن يقدموا على القتال الذي يعني الموت المؤكد في حالة الانهزام.

وفيما يتعلق بالبحث عن محاكمات نورمبرغ، فقد كتب المؤرخ البرتغالي «جواس داس راغراس» يقول: «وإن كانت الحثيات التي اعتمدتها محكمة نورمبرغ في إصدار أحكامها هي من الأمور المستحيلة على الفهم والادراك، إلا أن الأسباب والأغراض التي تكمن خلف أحكامها ليست من الغموض بالقدر الذي يظنه بعض النقاد. وبقيناً أنها جد واضحة، وهي لا تخرج عن كون العالم الغربي المسمى بالديمقراطي المتحضر، والمتخوم بالثروات الطائلة والمسير من قبل أحسن أنواع البشر، لم يعد يحتمل أن يرى نصب عينيه وجود الدولة الألمانية الشامخة التي تمردت على سادة الغرب طويلاً، وسارت في دروب العلم والحضارة، رافعة الرأس عالية الجبين، ولا تنظر إلى مخازي الغرب إلا بكل ازدراء. ولذا انقض عليها الغرب المهوّد بكل ما لديه من امكانيات مادية، ومع كل ما يجيش في صدور ساداته من

الحقد والتعطش للدماء، ولما قيض القدر الغاشم له النصر عليها، ضرب بكل المفاهيم والمثل عرض الحائط، وراح يلوغ في الدماء الألمانية بكل لذة وتشفي. ويعدم قاداتها ويقتل الظفر الحقيقي في هذا الصراع المحزن».

وهكذا قضى اليهود على العقبة الثالثة، ومن ثم فرضوا على العالم إرادتهم وأسسوا نواة دولتهم عام ١٩٤٨ التي يأملون الانطلاق منها الى ما تبقى لهم من الأهداف التي أقرت في مؤتمر بال ١٨٩٧.

المراجع

- ١ - س. ناجي «المفسدون في الأرض» منشورات العربي للإعلان والنشر والطباعة. دمشق. الطبعة الثانية ١٩٧٣. ص ٣٩١ - ٤٠٤.
- ٢ - وليم كار «اليهود وراء كل جريمة» تعليق خيرالله الطلفاح. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٠٠.
- ٣ - أتيلهان «الاسلام وبني اسرائيل» ص ٢٠٢ و ٢٧٩ و ٢٨٣ و ٢٨٦ و ٣٨٠ - ٣٨١.

اينشتاين بين العبقريّة واللصوصيّة

حفل تاريخ البشرية بأسماء الكثيرين من العلماء والمخترعين الذين قدموا للإنسانية الخدمات الجلّي في مختلف الميادين . وعندما كان هدف العلم يتمحور حول خدمة الانسان وتطوير المجتمع ، فقد كان لكل مخترع وعالم دوره وأهميته في هذه الحياة . ورغم ذلك لم يحظَ عالم على طول تاريخ البشرية بما حظي به «ألبرت اينشتاين» من دعاية في أجهزة الإعلام الجماهيرية من صحافة وإذاعة وتلفزيون . ولم تحدث محاولة من قبل هذه الأجهزة لكي تبيع للناس رجلاً من العلماء كما حدث في حالة اينشتاين .

فمن هو ألبرت اينشتاين؟ وما هي أسرار شهرته المميزة؟ .

تضاربت الآراء في الواقع حول شخصية اينشتاين . فمنهم من رشقه بتهمة مجرم حرب كالعالم الالماني «البرخت انسولد» الذي قال بأن اينشتاين ارتكب جرائم لا تقل خطورة عن تلك التي قام بها هتلر، وكان عليه أن يدرك أن رسالته المشهورة الى الرئيس الامريكي روزفلت في العام ١٩٣٩ التي أكدت امكان التطبيق العملي للتفجير الذري كانت ستقود الى تدمير هيروشيما وناغازاكي . وكانت هذه الرسالة قد وصلت الى روزفلت عن طريق مستشاره الاقتصادي «الكسندر ساكس» الذي كان صديقاً حميماً لاينشتاين .

ومنهم من وصفه بالعبقري الفذ وحاك حول هذه العبقريّة الكثير من المخرافات والأساطير ، كما هو حال الدعاية الصهيونية والغربية . ومنهم من رماه بتهمة «اللصوصيّة» حسب رأي المؤرخ التركي الجنرال اتيلهان . ويبقى السؤال الكبير من هو اينشتاين؟ وكيف تربع على هذا العرش الضخم من المجد والشهرة؟ .

ولد اينشتاين في ١٤ مارس سنة ١٨٧٩ في مدينة اولم بألمانيا من أبوين يهوديين . وبعد سنة من مولده أفلست تجارة أبيه فانتقلت العائلة الى مدينة ميونيخ حيث أسس والده وعمه ورشة للأعمال الكهربائية الكيميائية . ولقد أدخله والده هو وشقيقته مدرسة ابتدائية كاثوليكية في ميونيخ . وفي هذه المدرسة كان الأطفال الآخرون يعيرونه بديانته اليهودية . وكان لهذه المشاكسات الصببانية الفضل في أن ينشأ اينشتاين متمسكاً بعنف بترائه الديني وثقافته اليهودية .

لم يكن اينشتاين محبوباً من أساتذته . وكان كثير الجدل والمخالفة . ولم يكن يخفي نفوره من مدرّسيه ، الى درجة أن مدرّس اللغة اليونانية استدعاه مرة وطلب منه أن يغادر المدرسة فوراً قائلاً له : انك لن تكون شيئاً في هذه الحياة .

كان اينشتاين سعيداً جداً بوجوده في سويسرا مقارنةً بين الديمقراطية السويسرية وبين العسكرية الألمانية حيث بلغ عداؤه لأسلوب الحياة الألمانية الى درجة تخليه عن جنسيته الألمانية عام ١٨٩٦ . وظل خمس سنوات بلا جنسية حتى حصل على الجنسية السويسرية عام ١٩٠١ وظل محتفظاً بها طول حياته .

استطاع اينشتاين الدخول الى المدرسة العليا للتكنيك في زيورخ عام ١٨٩٦ حيث قضى فيها أربع سنوات نجح بعدها بمساعدة زميله «مارسيل غروسمان» ، وهو نفس الشخص الذي ساعده رياضياً على صياغة النسبية العامة بعد ذلك بسنوات ، والذي كان يحتفظ بمذكرات ممتازة عن محاضرات الأساتذة التي تغيب اينشتاين عن أكثرها .

تولّع اينشتاين بالفيزياء النظرية . وفي عام ١٩٠١ كتب أول بحث فيزيائي له ، واستطاع نشره في مجلة علمية سويسرية مرموقة وهي مجلة «حوليات الفيزياء» .

وحاول اينشتاين أن يستفيد من هذا البحث في ايجاد عمل جامعي له. فأرسل منه نسخاً الى كثير من العلماء، ولكن أحداً لم يهتم بالبحث ولا بصاحبه. ثم توسط له والد صديقه وزميله مارسيل غروسمان لدى مدير إدارة براءة الاختراع في برن حيث عين عام ١٩٠٢ موظفاً في الإدارة. وفي هذه الإدارة التي كان العمل فيها محدوداً جداً اختمرت عبقرية اينشتاين الفيزيائية في السنوات السبع التي قضاها هناك وهي بالتأكيد أخصب سنوات حياته في الفيزياء النظرية. وفي عام ١٩٠٤ كان اينشتاين قد نشر أربعة أبحاث في نفس المجلة العلمية السويسرية المرموقة. ومع أهمية هذه الأبحاث إلا أنها لم تكن غير مقدمة لعبقريته التي انفجرت مرة واحدة عام ١٩٠٥.

ان عام ١٩٠٥ يعتبر عاماً أساسياً في تاريخ علم الفيزياء النظري، حيث نشر فيه اينشتاين بحثاً بعنوان حول «كهروديناميكية الأجسام المتحركة». كان أول عرض جاد لما يعرف اليوم باسم «نظرية النسبية الخاصة». ورغم أن البحث لم يزد عن تسعة آلاف كلمة، إلا أن اينشتاين رمى فيه جانباً كل الأفكار النيوتونية السائدة عن الزمان والمكان بشكل بدا وكأنه اهانة للذوق العام.

حتى ذلك الوقت كان السائد هو ما أكده نيوتن في البرنسيبيا، من أن الزمان مطلق والمكان مطلق أيضاً. وكان هذان المبدأان مقبولين من جمهرة العلماء. ولقد قدم اينشتاين افتراضين أساسيين هما جوهر نظرية النسبية الخاصة: أولهما ينص على أنه لا توجد تجربة من أي نوع قادرة على اكتشاف السكون المطلق أو الحركة المطلقة المنتظمة في خط مستقيم، وهذا ما سماه بمبدأ النسبية بالمعنى الضيق. وثانيهما ينص على أن الضوء يتحرك في الفضاء الفارغ في خطوط مستقيمة وبسرعة ثابتة.

والغريب أن في ثورة اينشتاين هذه على مفهومي الزمان والمكان لم يستخدم غير معادلات كانت موجودة قبله وتعرف باسم معادلات لورنتز. وفي عام ١٩٠٧ أكمل اينشتاين ثورته في علم الفيزياء بنشر بحثه الذي أثبت فيه أن

الكتلة والطاقة متكافئتان. وفي هذا البحث قدم معادلته المشهورة:

$$\text{الطاقة} = \text{الكتلة} \times \text{مربع سرعة الضوء}$$

وكانت هذه المعادلة هي أول تفسير جدي لظاهرة الأجسام المشعة ذرياً، والتي تستمر سنوات طويلة في إشعاعها. وقد وجدت هذه المعادلة تأكيدها الفاجع لأول مرة في قبلتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان عام ١٩٤٥.

ولقد وقف معظم المشاهير من علماء الفيزياء موقفاً متردداً مدة طويلة إزاء ثورة اينشتاين هذه. وينطبق هذا على وجه الخصوص على «لورنتز» صاحب المعادلات التي استخدمها اينشتاين لإثبات وجهة نظره. كما ينطبق على «بوانكاريه» الذي كانت أبحاثه على بعد خطوة واحدة من الوصول إلى النظرية النسبية الخاصة. ولكن العالم الألماني الكبير «ماكس بلانك» كان إيجابياً في موقفه منذ نشر اينشتاين بحثه الشهير عام ١٩٠٥. إذ أن «ماكس بلانك» هذا يمتدحه «انسوليد» بكثير من الشناء كعالم فاضل حقاً. حتى أن اينشتاين قال عنه إذا هبط ملاك الرب وجال منازل هيكل العلم فإنه سيتردد أكثر العلماء ويبقي الحبيب بلانك، وكان بلانك رئيساً لدائرة الفيزياء في جامعة برلين بعد وفاة استاذة كيرتشف أحد عباقرة الفيزياء الكهربائية. وبقي في برلين حتى عام ١٩٢٨.

انشغل بلانك في عام ١٨٩٧ بدراسة سريان موجات الطاقة المنبعثة من أجسام ساخنة. وكان الرأي السائد أن الطاقة تسري كنهر غير منقطع. لكن بلانك لم يقتنع بالمبدأ الذي فشل في تفسير ظواهر كثيرة. فقال بأن الطاقة تنطلق بالتواتر. أي أن الإشعاع المنطلق من جسم ساخن يتم على دفعات مثل قفزات الضفدع. كل انطلاق أو قفزة منفصلة عن أختها. وابتدع معادلة تبين العلاقة بين القفزة الحرارية أو الضوئية والموجة، وأدخل رقماً لا يتغير في المعادلة يعرف اليوم باسم «الرقم الكوني الثابت لبلانك»، سرعان ما فسرت هذه النظرية أموراً كثيرة ومهمة، وأصبحت معادلته ركناً في كل العلوم

الطبيعية... نادى بالنظرية في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٠ ومنح جائزة نوبل عام ١٩١٨. كان اينشتاين أول المتحمسين للنظرية وتبناها لتطوير قوانينه المعروفة في عالم الطاقة والموجات الضوئية.

وأخيراً عين اينشتاين استاذاً مساعداً للفيزياء بجامعة زيورخ في مايو ١٩٠٩ بعد أن استقال من إدارة براءة الاختراع في برن. ومنذ ذلك الوقت انهالت العروض الجامعية على اينشتاين، وتبارت الجامعات في عروضها المغرية لكي يقبل الذهاب اليها. وقد قبل العرض المغربي الذي تقدمت به برلين بواسطة «ماكس بلانك» نفسه من أجل عضوية الأكاديمية البروسية للعلوم، ووظيفة مدير معهد القيصر ويلهلم للبحوث، وحرية كاملة في البحث أو التدريس حسب رغبته، مع حقه في الاحتفاظ بجنسيته السويسرية إذا شاء. ومع أن اينشتاين كان يكره العسكرية الألمانية إلا أن اغراء العرض كان قوياً جداً بحيث لم يستطع رفضه. وهكذا عاد اينشتاين الى برلين في ابريل ١٩١٤. لكن نشوب الحرب العالمية الأولى أعاد قلق اينشتاين بالعسكرية الألمانية بعد اعلانها الحرب على روسيا في آب/أغسطس ١٩١٤.

وفي عام ١٩١٦ بلغ قمة مجده العلمي بنشر بحثه الأساسي في نظرية النسبية العامة. وتآلق نجمه في ٢٩ / ٥ / ١٩١٩ عندما أثبت الفلكي البريطاني الكبير آد نجتون (الاستاذ بجامعة كامبردج) صحة هذه النظرية.

وفي عام ١٩٢١ تحول اينشتاين الى العقيدة الصهيونية ووافق على أن يشترك مع وايزمان (أول رئيس لدولة اسرائيل) في رحلة الى أميركا لجمع التبرعات للحركة الصهيونية. وزار فلسطين بعد ذلك حيث حاضر في الجامعة العبرية هناك. وفي هذا العام بالتحديد منح اينشتاين جائزة نوبل للسلام.

وعندما أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا عام ١٩٣٣ كان اينشتاين في أميركا يقضي اجازة هناك، فقدم استقالته من عضوية الأكاديمية البروسية وذهب الى بلجيكا حيث استقبله ملك بلجيكا. ثم قضى صيف ١٩٣٣ في بريطانيا حيث قابل ونستون تشرشل. ثم عاد الى أميركا في أواخر ١٩٣٣ وعين استاذاً في

جامعة برنستون وبقي فيها كل حياته.

والواقع أن الحماسة ليست مستحيلة حتى على العلماء النوايح. فقد كان اينشتاين غير صهيوني في بادئ الأمر ثم تحول الى هذه العقيدة العنصرية بحجة مناهضة حركة عنصرية أخرى هي النازية الألمانية. ولقد قدم اينشتاين نفسه كداعية للسلام وضد الحرب أياً كان سببها. ولكنه غير رأيه عام ١٩٣٣ عندما وصلت النازية الى الحكم، حيث دعا الى الحرب ضد النازية. وبعد الحرب العالمية الثانية كان اينشتاين واحداً من دعاة الحكومة العالمية الصهيونية. وعلى الرغم من المذابح التي ارتكبتها الصهيونيون ضد المدنيين من الشعب الفلسطيني في دير ياسين وغيرها لم يرتفع صوت اينشتاين احتجاجاً على هذه الجرائم، وكأن الجرائم ضد الأوروبيين شيء وضد شعوب العالم الثالث شيء آخر. وفي عام ١٩٥٥ كتب اينشتاين الى صديق له يقول: لقد بدأت أنظر للموت كدين قديم واجب السداد. وفي ١٨ أبريل ١٩٥٦ مات اينشتاين وأعلنت اسرائيل بعد وفاته أنه كان يعد بياناً لإذاعته بمناسبة الذكرى الثامنة لتأسيسها.

وبالنظر الى النشاط السياسي الواسع الذي تمتعت به جمعية القابالو الصهيونية في أمريكا، فقد بلغ حد إصدار النشرات التوجيهية الدورية وتوزيعها سرّاً على اليهود بغية تشجيعهم على التمسك بقوميتهم وحضهم على متابعة النضال. ومن بين هذه النشرات يذكر المؤرخ اتيلهان واحدة منها في كتابه «الاسلام وبني اسرائيل» قائلاً بأنه تلقى عدداً منها من بعض أصدقائه الأميركيين المخلصين لبلادهم. وقد جاء في هذه النشرة مايلي: ثقوا أيها الاخوة (اليهود) اننا خطونا في تحقيق مناهجنا خطوات واسعة خاصة بعد أن فزنا بثقة الكفرة (يعني غير اليهود) في الميادين العلمية بفضل العلماء والعابرة أمثال «سيغموند فرويد» و«ألبرت اينشتاين» و«جون سالك» الذين أوجدناهم. وهم اليوم يعتبرون من قبل الأجيال الصاعدة آلهة العبقرية والعلم لأنها تجهل حقيقتهم. أما نحن فنعرف كيف ولماذا أوجدناهم، لأننا قدرنا أن بإمكانهم

التأثير عن طريق العلم على معتقدات الشعوب وإضعافها.

ويعلق المؤرخ اتيلهان على هذا التعميم اليهودي فيقول: ان ما جاء في هذه النشرة عن مقدرة اليهود في رفع شأن من يرضون عنهم عن طريق الدعاية له بواسطة ما يمتلكونه من وسائل الاعلان والأعلام، فنحن نقر بكل أسف بقدرتهم هذه، لأننا نعلم الكثير عن الأساليب التي اعتمدها لإيصال بعض رجالاتهم كآينشتاين وسواه الى قمة المجد والشهرة. مع أن أبطالهم كانوا يفتقرون لكل المقومات اللازمة لبلوغ تلك الشهرة. فمثلا نعرف أن اينشتاين لم يكن في عام ١٩٠٥ سوى مسجلا للإختراعات الحديثة في الدائرة الفنية في سويسرا، وكانت مهمته تنحصر في قيد وتسجيل ما يرده من الاختراعات أو النظريات العلمية الحديثة ومقارنتها بسابقاتها، حتى لا يكون هناك إزدواج في الاختراعات أو النظريات الحديثة، وحتى لا تتورط الدولة في منح إجازات أو براءات مكررة. ومهنته هذه كفلت له الاطلاع على كل النظريات العلمية التي أوجدت في تلك العهود. ولما كان ذا إلمام كافٍ في العلوم الرياضية، بادر الى الاستفادة مما كان يرده من المعلومات الجديدة وعمد الى المقارنة والتدقيق ومن ثم حوّر بعض النظريات بصورة جزئية وزعم أنه واضعها أو موجدتها. ومن جملتها نظرية التحوّل التي سبق للعالم «لورنتز» أن أوجدها. فما كان من اينشتاين إلا أن حوّر طريقة حلها الى طريقة «غاليله» وادّعى ملكيتها، وبني عليها نظريته الخاصة النسبية، التي اشتهر بها. مع أن التباين في طريقة الحل لا يعتبر خطأ في معالجة المسائل العلمية طالما كانت القواعد والنتائج واحدة. ولقد قيل أن اينشتاين ساهم في الأبحاث الذرية، مع أن مساهمته في هذا المضمار لم تتعدّ حدود التعمق في النظريات التي أوجدها سواه، وخاصة ما وضعه العالم الالماني «أوتو هاهن» و«ماكس بلانك» الذي اكتشف تكوين المادة وحدد جزئيات الذرة وأثبت نوعية الاشعاعات وطريقة انتشارها منذ عام ١٩٠٠. وهذه المعلومات كانت في متناول يد اينشتاين بحكم عمله، وهي التي هيات له ظروف التعمق في دراساته العلمية. فاستثمرها لحسابه الخاص ونسبها لنفسه، مع أنها كانت أصلاً مما وجده العالم بلانك.

وفيما يتعلق بالنظريات العلمية التي وجدت في القرن العشرين، نشر العالم الذائع الصيت «لوي دو بروغلي» جدولاً يتضمن أسماء أصحاب النظريات العلمية، قال فيه أن «ماكس بلانك» هو الذي أوجد نظرية الطاقة وانتشار المادة السوداء عام ١٩٠١، وأن اينشتاين وجد نظرية النسبية عام ١٩٠٥ المنبثقة من نظريتي لورنتز وغاليله، والعالم روت هيرفور أوجد نظرية الدائرة أو الدورة الذرية السبازة عام ١٩١٠، ومن ثم أوجد نظرية القدرة الاشعاعية الاصطناعية عام ١٩١٩.

ويثابر اتيلهان في تعداد النظريات العلمية التي أوجدت في مستهل هذا القرن، ويؤكد اعتداء اينشتاين على حقوق أصحابها وسرقتها منهم ونسبتها لنفسه. وراحت أجهزة الدعاية الصهيونية تهلل له ولما سرقه من النظريات العلمية حتى توهم الناس أنه رب العلوم الحديثة وسيد عباقرة الأرض. بينما هو ليس إلا لصاً عادياً جعلت منه الأبواق اليهودية ما هو عليه من الشهرة والمجد.

بعد كل هذا لابد من القول بأن من يغتصب الأوطان ويشرد الشعوب ويقيم دولة عنصرية على جبال من الجثث والجماجم والدم مدعياً بأنه «شعب الله المختار» لا يستغرب عندها أن يخلق من اللصوص عباقرة، ويحول الباطل حقاً، وهم ليسوا في النهاية سوى مجموعة لا تتقن إلا فن اللصوصية القائم على الدم والمجازر.

ولكن الظلم إلى زوال... ولكل ظالم نهاية.

المراجع

- ١ - سمير شيخاني «مع الخالدين». دار السمير للطباعة والنشر. مطبعة جوزف صيقلبي. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
- ٢ - د. ابراهيم الدر «عالم الماني كبير يقول: اينشتاين مجرم حرب». مجلة «الجيل» (القبرصية). العدد الأول. المجلد الرابع. كانون الثاني / يناير سنة ١٩٨٣. ص ١٨ - ٢٣.
- ٣ - ألان اسحق وفاليري بيت «الفيزياء». ترجمة د. محمد دبس. معهد الانماء العربي. بيروت ١٩٨٠. ص ١٤٨ - ١٥٠.
- ٤ - عبد العظيم أنيس «ألبرت اينشتاين هذا العبقرى الصهيونى». مجلة «العربى» (الكويتية). العدد ٢٥٠. أيلول/سبتمبر ١٩٧٩. ص ٢٣ - ٢٩.
- ٥ - د. عبد العظيم أنيس «روبرت أوبنهايمر من انتاج القنبلة الذرية الى محكمة مجلس الشيوخ». مجلة «العربى» (الكويتية). العدد ٢٤٥. نيسان/ابريل ١٩٧٩. ص ٣١.
- ٦ - س. ناجي «المفسدون في الأرض» منشورات العربى للإعلان والنشر والطباعة. دمشق. الطبعة الثانية ١٩٧٣. ص ٣٤٥ - ٣٤٦ و ٣٥٠ - ٣٥٢.
- ٧ - اتيلهان «الاسلام وبني اسرائيل». ص ١٢٥ - ١٢٧ و ١٣٠ - ١٣١.

الكبرياء الألماني ووثيقة الاستسلام

عرفت البشرية منذ أزمانها الأولى كثيراً من الفظائع والأهوال. بيد أن النصف الأول من القرن العشرين، شهد ما يمكن تسميته في قاموس البشرية بأرقى أنواع الإبادة لبني الانسان والمتمثل بالنازية والفاشية، التي تركز على نفي العقلانية والانسانية وتتسم بالكراهية للعقل البشري وعبادة الغرائز الحيوانية.

من هذا المنطلق، كانت «الوصية» الألمانية التي تعبر عن مفهوم كامل حملته الفاشية في مسيرتها لإخضاع العالم، تلك «الوصية» التي تبتدىء بها مفكرة كل جندي في الجيش الألماني، وتقول: «سوف نرغم العالم أجمع على الركوع. أنت الماني، ومثلما يليق بالألماني عليك أن تبذل كل حي يقاومك في طريقك» . . .

لكن هذه العقلية الاجرامية لم تدم طويلاً، حيث سحقت في نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد «أن تمكن الجيش الروسي بالذات من تمزيق إمعاء ماكنة الحرب الألمانية» على حد تعبير ونستون تشرشل.

وهكذا تصور احدى الأغاني السوفياتية الشهيرة عظمة الانتصار على النازية والفاشية، وتقول: «يتركنا المنتصرون وهم عجائز ولكن النصر يبقى شاباً». ويبقى الانتصار على الفاشية في ذاكرتنا شاباً لأنه جدد العالم وغير خارطته السياسية فعلاً بعد أن وقع النازيون وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط ليلة التاسع من أيار/مايو سنة ١٩٤٥.

كيف كان ذلك؟ وما هي أسرار هذا الاستسلام اللا مشروط؟.

في نهاية شهر نيسان/ابريل من عام ١٩٤٥ . تسلم الأميرال الالماني «دونيتز» قيادة المانيا الشمالية بعد أن نقل مقر قيادته من «برنو» الى «بلون»، وقد كان يساعده المارشال «بوخ» كقائد للقوات البرية.

تلقى من الأنباء ما أذهله وجعله يشعر بأن مسؤوليات مفاجئة قد أخذت تثقل منكبيه . . . كانت أولى المفاجآت وأقلها خطورة هي خلع «غورنغ». أما الثانية فكانت برقية صادرة عن «مارتن بورمان» تفصح خيانة «هملر» ومفاوضاته السرية . وقد لخص فيها «بورمان» النتيجة التالية: «يعتقد الفوهرر هتلر انك ستقتص من الخونة جميعهم في الحال ومن غير هوادة».

لم يكن «دونيتز» رجلاً سياسياً . كان قد انزلق تحت تأثير هتلر المفسد، إلا أنه لا يحب «بورمان» ولا «غوبلز» ولا «هملر». ومع هذا فقد تردد، وبدل أن يضرب هذا الأخير «في الحال ومن غير هوادة»، طلب أن يقابل المتهم (هملر)، وقبل الموعد الذي ضرب له في ثكنة قوات الصاعقة في «لوبيك»، خرج من الثكنة تسليماً معافى فتنفس مساعده الصعداء. عاد «هملر» فأعرب عن إخلاصه غير المشروط للفوهرر، وأكد أنه ضحية لمؤامرة. وصلت الى «بلون» برقية أخرى مذيلة بتوقيع «بورمان»، تخبر «دونيتز» بأن الفوهرر قد عينه خليفة له بدلاً من «غورنغ» مارشال الرايخ سابقاً، وبأن سلطات خطية ستبلغه عما قليل. وأضافت البرقية: «إلا أنك تستطيع منذ الآن أن تتخذ من التدابير كل ما يفرضه الموقف». ولم توضح البرقية ما اذا كان هتلر قد قتل أو اعتزل مهامه مستقلاً في النكبة كما فعل غليوم الثاني عام ١٩١٨ .

كان «هملر» أول من أنبىء بهذا التدبير. استدعي الى «بلون» فأتى يحيط به ستة من ضباط الصاعقة المسلحين. فاستقبله «دونيتز» ومسدسه موضوع على الطاولة، وما تليت برقية «بورمان» حتى امتقع لون «هملر» غضباً، وقال بحدة: «أمل أن تسمح لي بأن أكون الرجل الثاني في دولتك». لقد انهارت المانيا، وغدا زعماء الاشتراكية القومية موسومين بسطابع آجال شائنة مخزية، وهم مع ذلك يتنافسون على الحكم بضرارة رجال العصابات

وطرقهم في الإخراج .

وفي تمام الساعة ٧,٤٠ من اليوم التالي ، أول مايو، وردت من برلين برقية جديدة تثبت وفاة أدولف هتلر .

وبدأت الجيوش الألمانية تتقهقر . . . وبدأ «دونيتز» نفسه مفاوضات مع الظافرين ، فقد توقف ليل ٢ أيار/مايو، أثناء فراره نحو «فلينبورغ»، عند جسر «ليفنسور» على قناة «كييل» ، ليكلف الأميرال «فون فريد بورغ» قائد سلاح البحر الأعلى ، مهمة الذهاب الى «مونتغمري» البريطاني ، ليقدم له استسلام الجيوش الألمانية الموجودة في ألمانيا الشمالية كلها، وليطلب مساعدته من أجل تخفيف بؤس اللاجئين .

أتت رحلة «فريد بورغ» ثأراً لمفوضي الهزيمة المطلقي الصلاحية منذ عام ١٩٣٨ ، الذين اضطروا الى إلقاء خضوع أمهم عند قدمي «هتلر» . رافقه في هذه الرحلة الجنرال «كينزل» رئيس أركان المارشال «بوخ» ، ورئيس هيئة أركانه هو الكونتر أميرال «فاغنر» ، وواحد من الضباط يدعى «فريدل» . سد اللاجئين الطرقات ، وعرقلها الحطام المتراكم ، وأدماها الطيران الحليف

باستمرار . وإذا أدرك المفاوضون خرائب «هامبورغ» أوقفهم الحاكم العسكري «كوفمان» وأعرب عن عزمه على رميهم بالرصاص . . . فلم يبلغوا ضاحية «لونبورغ» حيث توقف مركز قيادة «مونتغمري» المتجول إلا قبيل الظهر نزل «مونتغمري» من سيارته المقطورة ، فأدى الألمان التحية ، فأشار اليهم «مونتي» إشارة عدم مبالة وسأل : «من هم هؤلاء الرجال؟ وما شأنهم؟» . يا للحظة الجليلة المهيبة . . .

أما الاستسلام المرجو فقد رفضه «مونتغمري» ، فالجيوش المعروضة عليه تحارب ضد الروس : فلتسلم سلاحها للروس . أجاب «فريد بورغ» بأن جندياً واحداً لن يمثل لأمر إلقاء السلاح أمامهم ، لا محافظة على شرف ، ولكن لأن الأسر لدى السوفيات يعني ضرورياً من المعاملة السيئة يعذب إزاءها حتى

الموت . وبدل أن يجيب «مونتغمري» أدخل «فريد بورغ» الى سيارته وأطلعه على خرائطه، مشيراً الى القوات الضخمة الهائلة التي تزحف للإنقضاض على ما تبقى من المانيا. واذا بالأميرال الالماني يجهش بالبكاء. ولكن ساعة الغداء بدلت الجو قليلاً. أشار «مونتغمري» بأن يقدم الطعام للألمان في خيمة على حدة، وراح «فريد بورغ» يملح الطعام بدموعه. ثم استؤنفت المقابلة في خيمة القيادة الكبيرة وسط الخرائط التي لا تلين ولا ترحم. وهنا أعرب «مونتي» عن اقتراح معاكس، فاقترح أن تستسلم في الحال القوات الالمانية البرية والجوية والبحرية المتاخمة لجنابات مجموعة جيوشه ناحية الغرب والشمال، أي المقيمة في «هولندا» وفي جزر «الفريز» و«هيلغولاند» و«شيلزفيغ هولشتاين» و«الدانمرك». فلو تم هذا الشرط لعمول الجنود الالمان الذين سيتقدمون من المراكز الأمامية البريطانية، معاملة أسرى الحرب، فرادى أتوا أو جماعات، أما اللاجئون، فقد أكد «مونتغمري» أنه لا يستطيع أن يأذن لهم رسمياً باجتياز خطوطه، ولكنه وعد بأن ينظر في السبل التي تساعد على تخفيف آلامهم، وقال: «لست برجل مات فيه الشعور الانساني». وأعطى الدليل على ذلك اذ أمر بتعليق عمليات القصف الجوي قبل توقيع وثيقة الاستسلام.

أجاب «فريد بورغ» أنه لا يتمتع بالصلاحيات اللازمة ليأمر باستسلام القوات الالمانية المرابطة في «هولندا» و«الدانمرك». فتم الاتفاق على أن يذهب في طلبها الى «فلينبورغ»، على أن يبقى الأميرال «فاغنر» والجنرال «كينزل» في مقر القيادة الانكليزية. وعينت الساعة ١٨ من ٤ مايو موعداً أقصى للتوقيع على الاتفاقية.

وبعد مفاوضات ومباحثات مع «دونيتز» وقيادات الجيوش التي يشرف عليها الجيش الالماني، عاد «فريد بورغ» عند نصف الليل ممتقع اللون منهوكاً، فاستؤنفت بحث الشروط التي جاء بها أمام «كيتل» و«غودل» و«شفيرين». تردد الأميرال لحظة أمام ضرورة تسليم السفن كاملة سليمة، ثم

ما لبث أن رضح ، فخول «فريد بورغ» سلطة توقيع استسلام جيوش الشمال كلها . ثم طلب منه أن يواصل مهمته حتى «رامس» ليعرض على الأميركيين استسلاماً مماثلاً للجيش الأخرى .

ولما حانت الساعة ١٨ من ٤ أيار/مايو مثل «فريد بورغ» من جديد أمام سيارة «مونتغمري» الذي طرح عليه سؤالاً واحداً : «نعم أم لا؟» فأجاب الألماني : «نعم» . ولم تمض عشرون دقيقة حتى أكب يوقع وثيقة الاستسلام أمام مراسلي الصحف والمصورين وعدسات السينما وأجهزة الاذاعة . عاد بعد ذلك الى «فلينبورغ» على متن طائرة انكليزية ، وفي الغد أقلت به من هناك طائرة المانية تقله الى «رامس» ، حيث وصلها عند العصر برفقة الجنرال «كينزل» وكولونيل يدعى «بوليك» . فاستقبله «بيدل سميث» استقبالاً جعله يأمل في الحصول على تفهم صامت كالذي لقيه لدى «مونتغمري» . وسرعان ما خاب ظنه عندما عاد «سميث» من اجتماعه «بأيزنهاور» : «كانت الشروط غاية الشدة والقساوة ، فلا بد لوثيقة التسليم من أن تنال توقيع الجيوش الألمانية كلها ، ولا بد من أن تعقد مع «الروس» كما تعقد مع الغربيين» .

ولما حتم على «فريد بورغ» من جديد أن يجيب بـ «لا أو نعم» حصل على فرصة استشارة «فلينبورغ» . فذهب كينزل وقدم تقريره . فقرر «دونيتز» إرسال «غودل» في محاولة أخيرة . ولقد لحظ «فرنسيس دي غنغاند» الذي قاده من مركز «مونتغمري» التكتيكي الى «رامس» ، هدوءه ورباطة جأشه ، كما أعرب عما شعر به من قلق لوجوده في الطائرة ذاتها مع الرجل الذي كان روح هتلر الشريرة . وعندما أخفق «غودل» في المهمة ، وسدت السبل في وجهه ، أبرق الى «فلينبورغ» عند انتصاف الليل وقال أنه لم يبق أمامه إلا واحد من حلين : فإما التوقيع ، وإما الفوضى . وفي الساعة ١,٣٠ ، أجابه «كينزل» يقول : «ان الأميرال الكبير «دونيتز» يمنحك كل الصلاحيات اللازمة للتوقيع» .

كانت قاعة استقبال المدرسة المهنية قد أعدت لهذه الدقيقة المهمة التي تستسلم فيها المانيا بعد حرب دامت ٦٨ شهراً ، وفجأة صدر الأمر

بسحب المصاييح الضخمة وأجهزة التسجيل. وأبلغ المراسلون الـ ١٦، الذين استقدموا من باريس في طائرة خاصة، أن عليهم أن يحفظوا «طي الكتمان» نبأ الحدث الذي من أجله استدعوا، إذ ينبغي أن يحاط استسلام المانيا بين يدي الحلفاء الغربيين بالسرية. ولذا قرر «أيزنهاور» ألا يظهر في الاحتفال، تاركاً لـ «بيدل سميث» شرف ترؤسه، على أن يجلس الى يمين الجنرال الانكليزي «هارولد بورو»، والى يساره الجنرال الروسي «ايفان سوسلو باروف»، وهو رئيس مفرزة اتصال، ويكمل الناحية الحليفة من المائدة طيار أميركي وطيار انكليزي هما «كارل سباتز» و«ج. روب» والجنرال الانكليزي «فريدريك مورغان»، وأخيراً الجنرال الفرنسي «فرنسوا سيفيز» الذي دعي في اللحظة الأخيرة. وجلس في الناحية المقابلة «غودل» و«فريد بورغ» والميجر جنرال «فيلهلم اوكسينيوس» الذي استقدم لتمثيل سلاح الطيران الالمانى. جرى كل شيء خلال بضع دقائق عقب تصريح لـ «غودل» قال فيه ان الشعب الالمانى يسلم أمره الى مروءة الظافرين. هكذا كان طمس حقيقة التوقيع في «رامس» بمثابة تنازل جديد أمام «ستالين». ويبدو أن غضبته قد ألفت بالأركان الحليفة في حالة من الذعر المريع، فبادرت تعلن أن الاحتفال الحقيقي إنما سيجري بعد يومين، في «برلين» وسط جيوشه المظفرة.

ولقد علم العالم الغربي بحقيقة الأمر، وذلك بفضل الجراءة المدنية التي تحلى بها مراسل «الاسوشايتد برس» «ادموند كندي»، الذي تحدى الخطر وخدع الرقابة. إلا أنه وجب منع جنراليسم الغرب «دوايت أيزنهاور» من المبادرة الى برلين ليلعب الدور الثاني وراء المارشال جوكوف.

كانت برلين ما تزال طعمة للنيران، تهز خرائبها انفجارات صادرة عن مستودعات الذخيرة أو عن بعض القنابل الحليفة التي لم تتفجر، والتي راح الحريق يفجرها. أخضعت طائرات النقل القادمة بالوفود الغربية لتدابير ومعاملات دقيقة، وواكبتها المطاردات السوفياتية حتى مطار «تمبلهوف»، وقد انتشر فيه حطام المعركة. وقد أثار تحليق الطائرات فوق العاصمة المدمرة ذهول الغربيين مع أنهم كانوا قد أعدوا له.

هذا وقد جرى الاتفاق على أن يوقع وثيقة التسليم المارشال «جوكوف»، ومارشال الجو «تيدر» نائباً عن «أيزنهاور». أما الجنرال الأميركي «سباتز» والجنرال الفرنسي «دي لاتر» فسيوقعان عليها كشاهدين... إذن فقد سلم الشرف الفرنسي من الأذى... وكان «دي لاتر» قد وصل الى برلين مع رفيقيه الكولونيل «ديميتز» والكابتن «بوندو».

افتتحت الجلسة في قاعة الشرف التابعة لمعهد الضباط في «كارلهورست»، في ٩ مايو، بعيد منتصف الليل. وفي الدقيقة العاشرة بعد نصف الليل، دوى صوت المارشال غيورغي جوكوف في القاعة يأمر بإدخال الوفد الألماني، وكان «دونيتز» قد عين المارشال «كيتل» رئيساً له.

وعن هذه اللحظات، كتب شاهد العيان الصحفي والكاتب السوفياتي «الكسندر كريفييتسكي» الذي كان مراسلاً لصحيفة «النجم الأحمر» يقول: «وفتح الضباط الخافرون مصراعي الباب» فظهر على عتبة الفيلد مارشال «كيتل» وأميرال الاسطول «فريد بورغ» والفريق الجوي «شتومف». ثلاث خطوات بين الباب والطاولة المخصصة للوفد الألماني. وتقدم «كيتل» ووقف وراء الكرسي الأوسط، ومد يده اليمنى بعصا المارشالية، وأبقاها أمامه. في الوقت ثم نثرها الى صدره. فعل ذلك مرتين. وكان في هذه الحركة المناجئة ما يثير السخرية: ثم جلس على الكرسي واضعاً العصا على الطاولة. وجلس الى جانبه أميرال «فريد بورغ» وعلى وجهه صفرة الأموات، والجنرال «شتومف» ممثلاً المارشال «فون غرايم» الذي سمره الجرح الذي أصيب به في برلين في أحد المستشفيات البافارية. واصطف خلفهم ستة ضباط «في غاية الروعة» على حد قول نقيب المحامين «بوندو» «وقد حملوا جميعاً صليب الفرسان ذا السيفين، ووقفوا جامدين يعضون شفاههم كي لا يجهشوا بالبكاء...» كأنها، لعمرى، صورة مؤثرة لجيش مهزوم.

وأعلن المارشال «جوكوف»: الآن يجري توقيع وثيقة الاستسلام من دون قيد ولا شرط. فهز «كيتل» رأسه موافقاً ويعيد بصوت حيوي: نعم،

الاستسلام. وبعد أن سأل جوكوف عن وثيقة تثبت توفر الصلاحيات لتوقيع وثيقة الاستسلام باسم القيادة الألمانية العليا، واستعداد الوفد للتوقيع، أجاب كيتل : أجل... أجل... موافق... الاستسلام... أجل...

وهنا حدث التالي : عندما كان « كيتل » يهز رأسه ويكرر « أجل... أجل... »، أوما بيده اليسرى ايماءة تدل بوضوح على رغبته في أن يوضع أمامه على الطاولة ما ينبغي توقيعه. في حين كان يرسم بأصابع يده اليمنى حركة تشبه حركة انسان يكتب.

عندئذ نهض مدير الجلسة وقال بصوت منخفض : يطلب من مندوبي القيادة الألمانية العليا أن يتقدموا ويوقعوا المحضر هنا. وبحركة آمرة من يده رسم نصف دائرة توضح الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الجنرالات الالمان من أماكنهم الى الكرسي الصغير الموضوع أمام الطاولة الرئيسية. وهكذا كان...

واستسلمت المانيا بعد أن أعطائها التاريخ درساً قاسياً يصعب نسبانه أبد الدهر. وتحطمت عنجهية النازيين وكبرياؤهم «الحار» أمام «جليد» الاتحاد السوفياتي وثلوجه «الباردة».

ومن يعمل اليوم على الثار لألمانيا وأخذ دورها في سبيل حرب عالمية ثالثة، فليقرأ التاريخ بعمق ويدرسه بتمعن، اذا كان طامعاً في الحياة، عله يتعظ... ويعقل... ويرتاح.

والا... فعلى البشرية السلام..

المراجع

- ١ - ريمون كارتيه «الحرب العالمية الثانية». الجزء الثاني. نقله الى العربية سهيل سماحة وانطوان مسعود بإشراف جبران مسعود. منشورات مؤسسة نوفل للطباعة والنشر. و«بيت الحكمة». مطابع الأهلية اللبنانية. بيروت. آذار/مارس ١٩٦٧. ص ٣٤٦ - ٣٥٠.
- ٢ - ألكسندر كريفيتسكي «الاستسلام من دون قيد أو شرط». مجلة «المدار» (السوفياتية). العدد ٥. أيار/مايو ١٩٨٥. ص ٢٧.

المجرم الصهيوني يحاكم المجرم النازي «أسرار عملية اختطاف أدولف أيخمان الى اسرائيل»

النازية والصهيونية وجهان لعملة واحدة... والصراع بينهما هو صراع قائم على الاجرام والمذابح... ومن جمع في سجله العدد الأكثر، من الجثث، وفاحت منه رائحة الدم والموت أكثر من الآخر... استحق لنفسه لقب : «البطولة».

ويبقى الانسان في النهاية هو الهدف والضحية.

وتبقى مصيبة العصر أن يعمد مجرم محترف لمحاكمة مجرم محترف آخر.. هذا هو الحال في محاكمة المجرم النازي «أدولف أيخمان» من قبل المجرم الصهيوني «ايسر هرتيل» وسيده بن غوريون.

انها محاكمة غريبة بالفعل وتحمل في جوهرها الكثير من الخفايا والأسرار... كيف حصل ذلك؟ وكيف انتهت؟ وكيف تمكن «الموساد» الصهاينة من اختطاف أيخمان من الأرجنتين... ويحاكمونه أمام محاكمهم في اسرائيل؟ ولماذا؟.

كان أدولف أيخمان من رؤوس النازية ومن مساعدي هتلر الأقوياء. عيّن في عام ١٩٣٤ بالقسم اليهودي من خدمات الأمن التابعة للقمصان الزرقاء س. س. S. S. بوصفه خبيراً في قضايا الصهيونية، ولعب دوراً أساسياً في صياغة الحل النهائي للمسألة اليهودية وتنفيذه أيضاً. كان يعتز كثيراً بسهولة تنفيذ العمليات التي نظمها. وفي محاكمات «نورمبرغ» قدمت الأدلة على أنه

كان يفتخر بمساهمته في تصفية ملايين اليهود، وقد اشتملت تلك المساهمة على الدور الكبير الذي لعبه في «توسيع أوشفيتس» الذي أصبح أكبر معسكر للإبادة بالجملة، حيث لقي حوالي مليونين من اليهود مصرعهم حسب الدعاية الصهيونية.

تمكنت دول الحلفاء من القاء القبض على عدد من كبار النازيين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقدموا للمحاكمة في «نورمبرغ». في حين جرت تصفية حساب عدد آخر منهم على أيدي جماعة صهيونية أطلقت على نفسها اسم «المنتقمين»، وهي من اللواء اليهودي التابع للجيش البريطاني بمساعدة رجال عسكريين متعاطفين معهم من فرنسيين وانكليز وأميركان وغيرهم من قوات الاحتلال. هذا في الوقت الذي تمكن عدد قليل منهم من الفرار والافلات من يد «المنتقمين» السريعة. وكان من بينهم «أدولف أيخمان» بالذات الذي عرف عنه الذكاء والخبرة في شؤون البوليس وقضايا الأمن، وتمكن من إخفاء مسالكه فيما يبدو إخفاء تاماً، حتى حل خريف ١٩٥٧.

في هذا الوقت كان رئيس الموساد الصهيوني «ايسر هرثيل» قد حصل على معلومات موثوق بها من الدكتور «فرتس باور» المدعي العام في مقاطعة هيسي بألمانيا مفادها أن أيخمان يعيش في الأرجنتين.

درس ايسر هرثيل ملف أيخمان دراسة عميقة، وصمم على ضرورة الاتيان به ومحاكمته. وإن القاء القبض على هذا المجرم الخطير، الذي ما من شك في انه يحيا باسم مستعار، وتحوطه رعاية أصدقائه في الحكومة الأرجنتينية وخارجها، سوف تكون واحدة من أصعب المهمات التي واجهها في حياته، ثم، ما العمل به اذا تم القاء القبض عليه؟ سيكون من السهل اليسير القضاء عليه بالأسلوب الذي يتبعه «المنتقمون». ولكن ايسر هرثيل لم يكن يعتزم قتل أيخمان، بل كان ينوي الاتيان به الى اسرائيل ليمثل للمحاكمة أمام نازية جديدة بأسلوب قديم جديد على «أرض الميعاد»، حيث بذل أيخمان قصارى جهده لإبادة «شعب الله المختار» الذي يدعي بأن

فلسطين العربية هي «أرض الميعاد».

ذهب ايسر هرثيل فوراً لمقابلة رئيسه دايفيد بن غوريون، ولم يكن الرجلان يناقشان عظام الأمور على الهاتف. وقد تميز اللقاء بينهما بالقصر، اذ دخل ايسر مكتب بن غوريون وأخبره بأن لديه معلومات عن مكان اقامة أيخمان وقال: «أود أن تمنحوني الضوء الأخضر لجلبه الى اسرائيل». قال بن غوريون: «افعل ذلك».

ومنذ تلك اللحظة أعطي لايسر هرثيل الأولوية رقم (١) لهذه المهمة.

أما المدعي العام الالماني «فرتس باور» فقد استدل على أيخمان من يهودي أعمى في بيونس آيرس. كان شاب يطلق على نفسه اسم نيكولاس أيخمان يتودد لابنته، وكان هذا هو اسم أحد أبناء أدولف أيخمان الذين ولدوا له في المانيا، وأدى ذلك الى التعرف على عنوان عائلة أيخمان، وهو ٤٢٦١ شارع شاكابوكو في ضاحية أوليفوس في مدينة بيونس ايرس. وفي وقت مبكر من عام ١٩٥٨ أرسل هرثيل أحد العملاء للإشراف على مراقبة المنزل. بيد أن خطأ ما قد وقع، وأحس أيخمان بالمطاردة، ومنيت الملاحقة بالفشل.

وفي آذار/مارس من ذلك العام بعث ايسر الى بيونس ايرس رجلاً حنكته التجارب يدعى «أفرايم الروم». وقد انتقى ايسر ذلك الرجل بنفسه لأنه وجد فيه الشخص المطلوب لهذه المهمة.

وصل «الروم» الى بيونس ايرس، فذهب على الفور لزيارة «لوثار هرمان» وهو المحامي الالماني الأعمى الذي كانت ابنته تواعد نيكولاس أيخمان، وسمع «الروم» منه كيف ثارت شكوكه لمباهاة ذلك الشاب بالدور الخطير الذي لعبه أبوه في جهود الحرب بألمانيا.

وسارت الاستفسارات التي قام بها الرجلان عن المشتبه بأنه أدولف أيخمان في تريث ودقة. ولم يكن المتحريان يريدان الوقوع في المخاطر.

وتم تسليح العملاء بملفات تحتوي على جميع التنف المعلوماتية التي

تتيح لهم التحقق من هوية أيخمان. ومن هذه المعلومات سماته البدنية، وصوته الأجش، ويوم الاحتفال بزفافه أيضاً، وقد حرص النازي السابق على إتلاف كل صورة من صورهِ وقعت يده عليها، فلم يدع لمطارديه سوى صور باهتة تعود الى أيام ما قبل الحرب.

وفي ديسمبر ١٩٥٩ تعرف بعض عملاء الموساد على أيخمان في هيئة رجل ينتحل اسم: «ريكاردو كليمنت» وقد أفلح الفريق «الموسادي» بعد اقتفاء أثر الابن في تحديد موقع المنزل الذي تعيش فيه العائلة، وهو يقع في شارع «غاريبالدي» في منطقة «سان فرناندو» المنخفضة بالمدينة، ودأبوا على مراقبة البيت وصُوروه من جميع زواياه باستعمال عدسة مقربة مع عائلته في ذلك المنزل، واطمأنوا الى أنه لا بد من أنه سيكون «أدولف أيخمان»، ولم يبق عليهم سوى الظفر بالبرهان القاطع على هوية الرجل.

ويوم ٢١ آذار/مارس ظفروا بالبرهان . . .

ففي غسق ذلك اليوم، نزل ريكاردو كليمنت من سيارة الباص وسار متمهلاً نحو المنزل، وفي يده باقة من الزهر. وحنى كليمنت رأسه من تحت الأسلاك التي تحد أرضه، ثم قدم باقة الزهر الى المرأة التي قابلته بحرارة لدى الباب. وبدا طفلهما الأصغر الذي كان في العادة مهمل الملابس أو يلعب وهو عار في الحديقة، بدا أنيقاً حسن الهندام آنذاك، ومن بعد علت ضحكات المحتفلين من وراء ستائر المنزل المسدولة.

ولكن، فيم كان يقام هذا الاحتفال؟

وتناول أحد العملاء نسخته من ملف أيخمان فوجد فيه أن ٢١ مارس هذا هو العيد الخامس والعشرون لزفاف أيخمان.

وهنا انقشعت جميع الريب المتبقية حول «ريكاردو كليمنت». فقد كان هو أدولف أيخمان. ولم ينقض وقت طويل بعد تحقق عملاء ايسر هرتيل من هوية أيخمان، حتى قرر الذهاب الى الأرجنتين ليشرّف بنفسه على عملية

القاء القبض عليه . كما اختار ايسر بنفسه كل رجل في تلك المهمة من خيرة رجاله السريين ، وكلهم كان قد قام بمهمة في الخارج مجازفاً بحياته . وجميعهم كانوا ممن بقوا على قيد الحياة ونجوا من الاضطهاد النازي وشاهدوا اخوتهم وآباءهم وأمهاتهم يساقون بعيداً الى معسكرات الاعتقال للمرة الأخيرة في حياتهم . وكان بعضهم - كما تقول الموساد - الوجيهين الذين بقوا أحياء من عائلات ابعدت تماماً . وكان أحد هؤلاء «شالوم داني» ، وقد ترعرع هذا في أحياء الغيتو، ثم نقل من معسكر الى آخر بعد الغزو النازي لمسقط رأسه في المجر . أما أبوه فقد سيق الى الموت في غرف الغاز في «بيرغن بنزن» حسب ما تزوج له الدعاية الصهيونية .

وذاق «شالوم داني» عذاب السجن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية على يد البريطانيين . أما دوره في هذه العملية ، فقد تمثل بإعداد الوثائق اللازمة لأعضاء فريق الموساد ولأیخمان نفسه من أجل تسهيل عملية اختفائه من الأرجنتين . هذا وقد بلغ أعضاء الفريق اثنين وثلاثين شخصاً عاملاً ومسانداً داخل الأرجنتين .

وبدأت العملية بدون إحداث متاعب في نهاية شهر ابريل . وطار العملاء من جميع أرجاء المعمورة الى الأرجنتين ، ولم يكن أي اثنين منهما من مدينة واحدة ، وقليل منهم من كانوا من البلد نفسه ، وقد شرع هؤلاء على الفور في استئجار منازل «آمنة» لتكون قواعد انطلاق لعملياتهم . كما استأجروا أرتالاً من السيارات ، كانوا يبدلونهم دائماً وباستمرار كي لا ينتبه اليهم أحد .

وأعدت الترتيبات سلفاً لنقل الأسير جواً بإحدى طائرات شركة العال الذاهبة الى بيونس ايرس لإنزال وفد اسرائيلي ، يشارك في الاحتفال المقام في الذكرى المئة والخمسين لاستقلال الأرجنتين . وكان الحظ موالياً كل المواتاة لتمكن ايسر من المشاركة الفعالة في تحديد زمن السماح للطائرة بالاقلاع من الأرجنتين .

وفي ١١ مايو كانت قد أنجزت جميع الاستعدادات ، وتقرر أن يتغلب

رجال الموساد على أيخمان في ذلك اليوم حين يعود الى بيته مساء، وأن يختطف ويودع في أحد منازل الاسرائيليين «الأمنة».

وفي الساعة السابعة والدقيقة ٣٤ وقفت سيارتان في شارع غاريبالدي، وكان غطاء إحداهما مكشوفاً، ورجلان يتدارسان ما بدا أنه عطل ما في السيارة، وفي المقعد الخلفي كان رجل متأهب للوثوب.

وكان لدى السيارة الأخرى الواقفة على بعد ٣٠ متراً رجل آخر يحاول تبين العلة في توقف محرك سيارته.

وكان أيخمان يعود الى البيت في سيارة الباص في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، وسيقومون بالقبض عليه وهو يسير في طريقه الى البيت.

وصل الباص في الوقت المحدد. ولكن أيخمان لم يكن فيه. وازدادت حدة التوتر بين أفراد الجماعة، وقرروا انتظار قدوم الباص التالي، الذي لم يكن فيه أيضاً، وكذلك في الباص الثالث. وعقد العملاء مؤتمراً عاجلاً، فلو بقيت سياراتهم طويلاً، لبدأت الشكوك تحوم حولهم، وسيؤدي ذلك الى احباط المهمة بتمامها، بيد أنه لم يكن من السهل عليهم التراجع بعد كل ما فعلوه، اذن، بضع دقائق أخرى...

وفي الساعة الثامنة تماماً، لاحت سيارة باص أخرى، وهبط منها شخص وحيد. وفي أثناء مسيره تجاه العملاء عرفوا فيه رجلهم المطلوب. لحظات من الصمت، بقي فيها العملاء ينتظرون وصول أيخمان الى المكان الملائم.

وفجأة بهرت عيني أيخمان أضواء السيارتين. ألقى رجلان القبض عليه، فصدرت عنه صيحة فزع وحيدة، ثم ألقى في المقعد الخلفي من إحدى السيارتين، ورأسه مضغوط بين ركبتي أحد رجال الموساد. وشد وثاق أيخمان، وسد فمه بسداد ما، ووضعت نظارتان قاتمتان على عينيه، كيلا يعرف مختطفيه، ويكون أية فكرة عن الغاية التي يساق اليها، وقد دثر ببطانية

وطرح على أرض السيارة. وانحنى أحد رجال الموساد من فوقه وقال له بالالمانية: «إذا قمت بحركة واحدة، فسنطلق عليك النار».

وفي أقل من ساعة بعد الاختطاف، كان أيخمان يستلقي معصوب العينين في الفراش بمنزل يقع في الجانب الآخر من المدينة، وكانت إحدى ساقيه مشدودة الى هيكل السرير، وقد استبدلت ثيابه ببيجاما اشترى له مؤخراً.

وعندما تفحص رجال الموساد خصائصه المميزة الواحدة تلو الأخرى، وجدوها مطابقة بأجمعها لمدوناتهم، وذهبت الى غير رجعة عجرة ضابط القمصان الزرقاء S. S. وكانت طريقة تهريب أيخمان الى الخارج قد خطط لها سلفاً، في كثير من العناية والحرص. فقد وضع أحد العملاء في مستشفى محلي، بادعاء أنه يعاني من ضرر في الدماغ اثر حادث مزعوم. وكان أحد أقاربه طبيب الموساد يعود كل يوم فيخبره كيف يصف أعراض حالته. الخطة تقضي بأن يحدث تحسن بطيء ومنتظم لهذا المريض.

وفي صباح ٢٠ مايو استعاد المريض صحته مما أتاح لأطبائه المسرورين أن يأمرؤا بإخراجه من المستشفى، انهم منحوه شهادات صحية وإذناً خطياً حسب طلبه بالعودة الى وطنه بالطائرة.

ولم يكذ المريض يخرج من المستشفى حتى أخذت منه أوراقه على عجل، واستبدلت بها صورة أيخمان ووثائقه الشخصية.

كانت أصعب فترة في حياة ايسر هرثيل هي تلك الفترة الحرجة التي سيتم فيها تهريب أيخمان من بين موظفي الجمارك والجوازات، وعبر شبكة الأمن التي تحيط بالمطار أيضاً. وقد نقل ايسر مقره المتنقل الى منضدة في مطعم الموظفين بالمطار، حيث بقي جالساً طوال اليوم يتلقى التقارير من عملائه.

والى جانب ايسر هرثيل، أمام أبصار سلطات بيونس ايرس كان شالوم

داني جالساً يضع اللمسات الأخيرة على جوازات السفر المزيفة، ويتأكد من أن الوثائق التي وصلت إليه قد تم دمجها بأختام حكومة الأرجنتين الرسمية.

وفي أثناء ذلك كان رجال الموساد يعتنون بحلاقة أيخمان واغتساله ونظافته، وقد ألبسه رجال الموساد بذلة مما يستخدمها رجال طيران شركة العال، وقام طبيب من الفريق بحقنه بإبرة خاصة فيها عقار تم تركيبه بحيث يشوش احساسات أيخمان فلا يعي شيئاً مما يدور حوله، ولكنه يظل واعياً في الوقت نفسه مما يتيح له السير اذا أسنده رجلان عن يمينه وشماله.

وفي السيارة الثانية، من قافلة مؤلفة من ثلاث عربات ممتلئة جميعاً بملاحي الطيران، سيق أيخمان الى مدخل الموظفين في المطار، وعندما اقتربت القافلة من مقر الحراس، أخذ رجال السيارة الأولى يغنون ويقهقهون، وأوضح سائق سيارتهم الذي بدا عليه الارتباك، أوضح للحراس أن... جماعته قد استمتعوا بحياة الليل في بيونس ايرس كثيراً، حتى أنهم كادوا ينسون أنهم سيسافرون الى وطنهم في ذلك المساء نفسه. وكان بعض الرجال يهيمون من النعاس، مما جعل الحراس يتندرون بأنهم لن يتمكنوا من استعمال الطائرة مع هذا الخبل الذي أصابهم وقال السائق: أنهم على ما يرام، وما هؤلاء سوى الملاحين البدلاء، وفي وسعهم أن يكملوا نومهم في داخل الطائرة. عندها أشار الحراس للقافلة بالتقدم.

وأخذ اثنان من عتاة الفريق يضغطان أيخمان بينهما بذراعيهما، وهما يسندانه عن يمينه وعن شماله ويساعدانه في تسلق المجاز المؤدي الى الطائرة.

وعلى متن الطائرة تم دفع أيخمان، وجره ثم وضعه في مقعد مجاور للشباك، بالقسم الأمامي من الطائرة، ومن حوله كان الملاحون يتظاهرون بأنهم يغطون في نوم عميق، ثم أطفأ ربان الطائرة الأنوار في ذلك الموقع، ومضى الملاحون الآخرون يقدمون وثائقهم الواحد تلو الآخر الى موظفي الجمارك والجوازات، وكان كل شيء يسير بدون أدنى متاعب.

وأخيراً قدم ايسر هرثيل وثائقه وصعد على متن الطائرة، وكان كل شيء معداً للإطلاق. وبعد قليل، هدرت محركات الطائرة، واندفعت في الممر بالمطار. وما هي إلا لحظات حتى كانت تحلق في الجو. وكانت الساعة حينذاك قد تجاوزت منتصف الليل بخمس دقائق. وبعد ٢٤ ساعة من إقلاع الطائرة من بيونس ايرس، هبطت في مطار اللد وساق ايسر هرثيل سيارته على الفور الى مكتب بن غوريون، ولأول مرة أتاح لنفسه أن يتبسط في حديثه معه وقال: «أتيتك بهدية صغيرة».

واعترى بن غوريون الوجوم لعدة ثوان. فقد كان يعرف أن ايسر يطارد أيخمان، ولكنه لم يكن يعلم أنه على وشك الاتيان به.

وبلغت فترة غياب ايسر عن «اسرائيل» ٢٣ يوماً. وعندما عاد الى منزله في تلك الليلة سأله زوجته «رفكة» أين كان، فكان جوابه الوحيد: في مكان ما. غير أنها حصلت على معلومات أوسع في اليوم التالي عندما ألقى بن غوريون خطاباً قصيراً بالغ الأهمية في الكنيسة قائلاً: «يتوجب عليّ الاعلان عن أن الاستخبارات الاسرائيلية قد عثرت قبل وقت قصير على واحد من كبار مجرمي النازية وهو أدولف أيخمان الذي كان مسؤولاً مع سواه عما سَمّوه بالحل النهائي للمشكلة اليهودية، أي اباداة ستة ملايين يهودي في أوروبا.

إن أيخمان رهن الاعتقال في اسرائيل الآن، وسيقدم قريباً للمحاكمة. وكان صوت بن غوريون يتهدج من فرط الانفعال. وبينما كان بن غوريون يلقي خطابه اتجهت أنظار الحاضرين في الكنيسة من رجال ونساء الى مكان في القسم الذي لا يشغله أعضاء الكنيسة، وهناك كان ايسر هرثيل الذي قلما ظهر علانية في الاجتماعات، وكان لا ينبس ببنت شفة.

وكان طبعياً أن يحكم على أيخمان بالاعدام في دولة قامت على الاجرام والدم والجثث.

إلا أنه من الطبيعي أيضاً أن نعادي كل ما يمثله أيخمان والنازية من قيم

واتجاهات لا انسانية وأن نعادي في الوقت نفسه وبمنطق ذات الموقف، بن غوريون والصهيونية العالمية كحركة وكيان عدواني باسرائيل .

فإذا كانت النازية عدواناً تدثر بالعنصرية وأثار عاصفة الحرب العالمية الثانية ضد الانسانية فكذلك الصهيونية، تيار استعماري عدواني يقتات بالعنصرية ويؤسس بالقتل وسفك الدماء ومعونة أعتى القوى الاستعمارية، قاعدة عدوانية في فلسطين تنطلق منها حملات التخريب المسلحة والسياسية لحركات التحرر في آسيا وأفريقيا.

وإذا كان أيخمان النازي مسؤولاً عن قتل الملايين من اليهود في أوروبا فكذلك بن غوريون . . الصهيوني - وتلاميذه الكثر - مسؤول عن قتل آلاف من العرب، وتشريد ما لا يقل عن مليون منهم . .

وإذا كانت الدماء التي أهدرت في معتقل أوشفيتس النازي تلتخ جبين أيخمان والنازية، فكذلك الدماء العربية التي سفكت ولا تزال تسفك كل يوم في فلسطين المحتلة، وفي الدول العربية المجاورة، تلتخ جبين بن غوريون والصهيونية. وإذن فالجريمة في الحالتين من نوع واحد، ولا يهم أمامهما عقد المقارنات بين كمية الدماء المهدرة في «اسرائيل» الصهيونية والمانيا النازية. إبادة انسان واحد كإبادة ألف. كل منهما جريمة قتل، ولا يستطيع المجرم - كما قال الفيلسوف أرنولد توينبي في مناظرته التاريخية مع سفير اسرائيل في كندا - «أن يكون قاتلاً أكثر من مائة في المائة».

وحقاً لا بد من محاكمة المجرم وإنزال العقاب به . ولكن من يملك سلطة المحاكمة؟ من الواضح أنه اذا كان المجرم «محلياً» فحق محاكمته منوط بالدولة التي ارتكبت الجريمة في اقليمها. أما اذا كان المجرم «دولياً» فحق محاكمته يتعلق عندئذ بالانسانية جمعاء.

وأيخمان النازي هو مجرم حرب دولي وبالتالي فالانسانية ممثلة في تنظيماتها الدولية، لا اسرائيل، هي سلطة الاتهام والمحاكمة المختصة. وهذا تقليد دولي سبق اتباعه بعد الحرب العالمية الثانية في محاكمات نورمبرغ، أما

أن يحاكم مجرم مجرماً آخر وتقف الصهيونية موقف الاتهام من النازية فهو وضع أقرب الى الصورة الكاريكاتورية الساخرة منه الى محاكمة موضوعية تلقي الأضواء على جرائم النازية وتكشفها أمام الضمير الانساني فتمنع تكرارها بصورة أخرى.

والحق أن اسرائيل تخشى المحاكمة الموضوعية لأبخمان لأن فيها كشفاً أيضاً لجرائم الصهيونية كامتداد لجرائم النازية. ولهذا لم تكن محاكمته عادلة. وهكذا لم يكن إعدام أبخمان إعداماً لشخص، بقدر ما كان إعداماً للوثائق والمعلومات التي يمتلكها أبخمان في تعاون النازيين مع الصهيونية والوكالة اليهودية، قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها.

ويوماً ما، قرب هذا اليوم أو بعد، سيقف حتماً بن غوريون وغيره من زعماء الصهيونية في قفص اتهام الانسانية، يحاكمون محاكمة موضوعية عن جرائم اسرائيل المرتكبة لا ضد العرب فحسب بل وضد اليهود أيضاً الذين غرر بهم تحت شعار الوطن القومي، فعصف باستقرارهم وأمنهم ومصالحهم في كل بقعة من العالم.

المراجع

- ١ - دينيس أيزنبرغ وآخرون. «الموساد جهاز المخابرات الاسرائيلية السري». المؤسسة العربية للدراسات والنشر ودار الجليل للنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨١. ص ١٧ - ٢٩.
- ٢ - لطفي الخولي «أيخمان بين النازية والصهيونية» جريدة «الأهرام» القاهرية بتاريخ ٢٤ آذار/مارس ١٩٦١.
- ٣ - مجلة «نحن والعالم». العدد السادس. دار النشر العربية. بيروت ١٩٦١. ص ١٨ - ٢١.
- ٤ - نزار عمار «الاستخبارات الاسرائيلية». المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٦. ص ٧٧ - ٨٤.
- ٥ - زفي ألدوبي وجيرولد بالينغر «الجاسوسية الاسرائيلية وحرب الأيام الستة» تعريب غسان النوفلي. بيروت ١٩٧٢. ص ١٢٣ - ١٢٤.

دحرجة الرؤوس في بون

بعد أن شهد القرن العشرون كثيراً من التطورات في عالم الاختراع والتكنولوجيا، كان طبيعياً أن ينعكس ذلك على وسائل الاعلام في أي بلد من بلدان الدنيا، كما أصبح تعداد المدن والدول، من المواد «الاستهلاكية» الضرورية في عملية بث الأخبار واختلاف البرامج. إلا أن اسم «دولة المانيا» يبقى له الوقع والوزن الأكبر في هذا القرن، حيث ترسم فوراً في أذهان الناس صورة ذلك المارد الذي يحمل فتيل الحرب لإشعال شرارتها المحرقة..

وهل تنتظر البشرية أكثر من حربين عالميتين لتؤكد ذلك، بعد أن حمل العالم أجمع مسؤولية إشعال هاتين الحربين الى «المانيا» وفي قرن واحد فقط؟ وهذا ما يجعل الكثيرين من الالمان، أكثر من غيرهم، عرضة لعملية «تدحرج الرؤوس» في مسلسلات تجسسية قلّ نظيرها. ولم تكن حادثة رئيس دائرة مكافحة التجسس في المانيا الغربية المدعو «هانس تيدغي» في الشهر الثامن من عام ١٩٨٥، سوى الحلقة الأساسية في هذا المسلسل.

فمن هو «هانس يواكيم تيدغي»؟ وما هي أسرار عملية هروبه الى المانيا الشرقية؟.

في الحقيقة، ضجّت وسائل الاعلام على اختلافها، بأخبار هذه الحادثة. كما تبارت في التقاط تفاصيلها وأدق أسرارها حتى صورت أخيراً وكأن كل أسرار الغرب كانت داخل كأس من النبيذ على حد قول جيران «هانس تيدغي» رئيس دائرة مكافحة التجسس في المانيا الغربية والذي فر الى المانيا الشرقية. ويضيف هؤلاء الجيران بأنه «كان مخموراً دائماً، وإذا ما ظهرت امرأة شقراء

في النافذة، راح يناديها بصوت عال مع أن مهمته تقتصر على النظر من ثقب الباب. . كان بإمكان الذئب أن تدخل من الباب ساعة تشاء» هذا ما قالته صحيفة بيلد تساميتونغ التي أضافت أن الوثائق والمعلومات كانت تتناثر على الطاولات وأحياناً على المقاعد كما لو أنها زجاجات فارغة. ولا شك أن الكثير منها قد «تطاير» عبر النوافذ. .

كان «هانس يواكيم تيدغي» رجلاً متوازناً للغاية لكنه كان يدّعي حالة السكر لإخفاء، علاقاته السرية. فالرجل الذي كان مفترضاً فيه أن يكافح الجاسوسية، أنشأ شبكة للقيام بكل عمليات التجسس التي تأتي بالفائدة على الاتحاد السوفياتي. وقد تمكن من السيطرة النفسية على رؤسائه ومرؤوسيه. وكان يبدو أكثر الناس كراهية للاتحاد السوفياتي، حتى أنه لم يتردد في القول ذات مرة أمام مسؤول فنلندي أنه كان يفترض بالرئيس هاري ترومان أن يلقي القنبلة الذرية على موسكو لأن قيام الثورة البولشفية هو السبب الحقيقي لاندلاع الحرب العالمية الثانية، وستكون السبب لاندلاع الحرب العالمية الثالثة. . .

كان «تيدغي» على علاقة وثيقة، وبحكم مركزه، بوكالة الاستخبارات المركزية. وإذا كانت ألمانيا هي بوابة العبور باتجاه الشرق، فقد كان الرجل يعرف تقريباً، بكل عميل أميركي يتوجه إلى الاتحاد السوفياتي أو إلى أية دولة أوروبية شرقية أخرى. كان يحصل على كل التفاصيل ثم يبثها عبر البقال إلى مركز الـ «ك. ج. ب» في موسكو. هذا وقد وصل الأمر إلى حد، يردد فيه في أكثر من عاصمة أوروبية أن «تيدغي» استطاع أن يخدع الجميع وأن يحصل على معلومات يفترض وصولها إلى الاتحاد السوفياتي لإعادة النظر، وبصورة كاملة، بالخطط الاستراتيجية الغربية، لأن معرفتها تؤدي فعلاً إلى زعزعة ألمانيا الغربية والمعسكر الغربي برمته. .

«الحارس الكبير» هو الذي سقط وسقطت معه ألمانيا في كأس من النبيذ: «أجل لقد تحطمت أسرارنا، ولقد تحطم رجالنا أيضاً. لكن الأهم هو

أن ثقة الآخرين بنا هي التي تحطمت». هذا ما قاله عضو في «البندستاغ» عن الحزب الاشتراكي مشيراً إلى أنه خلال القمة الأخيرة للدول المصنعة السبع، بدا واضحاً أن واشنطن وبون أعلنتا نوعاً من الأخوة التكنولوجية بعدما أبدت الدول الغربية الأخرى وعلى رأسها فرنسا، تحفظات عميقة على المشاركة في «مبادرة الدفاع الاستراتيجي» التي تعرف بـ «حرب النجوم»..

إن كل الأسرار الأميركية كانت بين أيدي الألمان. ولقد بات هذا معروفاً للغاية، أما الآن فكل الأسرار الأميركية هي بين أيدي السوفييات الذين طالما قال الأميركيون أنهم يعيشون في عصور الجليد، لكن الجليد يحرق الأصابع الغربية كما يبدو، وثمة تفاعلات لقضية «تيدغي» قد لا تقتصر على المستشار «هيلموت كول» وحده، حيث من المعروف أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تقيم نوعاً من المظلة الأمنية السرية فوق المانيا الغربية. لكن الـ «ك. ج. ب» (أي المخابرات السوفياتية) تمكنت من إحداث ثقب واسع في هذه المظلة. والدليل أن «هانس تيدغي»، الحارس الكبير، انتقل إلى برلين الشرقية ومنها إلى موسكو على الأرجح ليتطير رجال الغرب في الشرق...

الأميركيون بدأوا بالدفاع عن الاحتمالات وهم يقولون أنهم يعرفون جيداً بأن العديد من الألمان لم يتخلصوا من عقدهم، ولم يتجاوبوا بالتالي مع مبدأ العيش المشترك مع الأمم التي دحرتهم في منتصف الأربعينات، وبالطبع فإن هؤلاء الذين يتسللون كالثعابين إلى المراكز الحساسة مستعدون لفعل أي شيء ينشر التوتر في العالم، ويجعل احتمالات الصدام أكثر حدة. فبالألمان يجب أن يكونوا في حالة حرب مستمرة مع الجميع إلى أن تتوحد المانيا...

ولهذا السبب يدعي الأميركيون بأنهم لا يضعون سوى الأسرار العديدة الجدوى أمام حلفائهم الألمان، منذ أن ألقى القبض على «غونتر غيوم» مستشار المستشار «ويلي برانت» في أيار/مايو سنة ١٩٧٤..

ويلاحظ «دوغلاس لوفين»، وهو من الأميركيين الذين سبق لهم وعملوا في الـ «سي . آي . أي» أن جهاز الاستخبارات في أي دولة من الدول لا بد من أن يكون انعكاساً للوضع المجتمعي . وفي الولايات المتحدة حيث يعاني المجتمع من التفتت العميق، لا مجال للحديث عن التماسك في أي قطاع حتى ولو كان هذا القطاع هو الـ «سي . آي . أي» . حيث يفترض أن يقوم توازن دقيق في عبقرية الآلهة وعبقرية الشياطين . لكن «لوفين» يعتقد أن السوفيات ليسوا بحاجة إلى التجول داخل البيت الأبيض . . وقد يكونوا هناك فعلاً كي يطلعوا على الأسرار الاستراتيجية الأميركية . إذ يكفيهم أن يتجولوا في أمكنة أقل أهمية كي يعثروا على الأسرار وهي مبعثرة على الأرض . هكذا كانت حالة منزل «هانس تيدغي» وقد بدا بعد تفقده - الذي أعقب فرار صاحبه - كما لو أنه مقهى سوفياتي من الدرجة الرابعة . ولقد كان مثيراً أن يتساءل كاتب سياسي أميركي عما إذا كان السوفيات قد زرعوا جهاز بث الكتروني في بطن الرئيس رونالد ريغان لدى إجراء العملية الجراحية في أمعائه المصابة بالسرطان . .

وبعبارة أخرى، يقول «دوغلاس لوفين» أن أزمة الثقة هي التي تحكم العلاقات بين هذه الدول، وقد تم بحث الموضوع أكثر من مرة في الاجتماعات السرية لقيادة حلف الأطلسي . وتتخذ التوصيات التي تزيد الأمور تعقيداً . وهنا يقول «لوفين» الذي يملك الآن مزرعة صغيرة في كاليفورنيا أن السوفيات موجودون في كل مكان : «لقد خدمت في باريس وروما وبروكسل وأعرف تماماً أن قرارات حلف شمالي الأطلسي كانت تصل أحياناً إلى موسكو قبل أن تصل إلى واشنطن» . .

والواقع أن المانيا الغربية تمثل الآن العمق الحقيقي لحلف شمالي الأطلسي . فالفرنسيون انسحبوا من الجناح العسكري للحلف في مارس ١٩٦٦ كما أن البريطانيين يعانون من الترهل، فيما تتراقص إيطاليا بين الأحزاب المتصارعة . ويبقى أن الظروف الألمانية هي الأفضل بحيث أن الجنرال

«الكسندر هيغ» وقد شغل لفترة منصب القائد العام لقوات الحلف، وصف بون ذات مرة بأنها عاصمة الأطلسي، مع أنها لا تطل على المحيط، بل تغتسل بمياه بحر الشمال . . .

لكن الالمان يشعرون وكأن عليهم أن يتصرفوا كما العمالقة الذين فرض عليهم المكوث في القاع. هذا ما قاله «هنريش بويل» تحديداً: «اننا نتنفس نصف الهواء، نرى نصف السماء، نعمل لنصف المستقبل» اذ ينبغي أن تنقسم الكرة الأرضية الى قسمين، أو بالأحرى يجب أن تنفجر. حيث أن احدى الصحف الفرنسية طلعت بتعليق خلصت فيه الى أن كل الماني جاسوس حتى يثبت العكس. مضيفة بأن الالمان «جعلوا الاتحاد السوفياتي العضو الرئيسي في حلف شمالي الأطلسي. . أجل إنه يوجد بيننا، وينبغي أن نفتش رؤوس الجنرالات الالمان بدقة قبل أن يدخلوا، فهناك توجد الأبالسة». لقد تطرقت هذه الصحيفة الى هذا القول بعد أن أثبتت قصة «مانفريد روتش» الشهيرة حيث كان هذا الأخير رئيس قسم التخطيط في شركة «ميسر شميث - بولكوف - بلوف» واعتقل في شهر سبتمبر ١٩٨٤، بعد اتهامه بالعمل لحساب الاستخبارات السوفياتية وتسليمها معلومات تتعلق بمشاريع أطلسية باللغة الحيوية من بينها: مشروع الطائرة المقاتلة «أ. س. ف» الذي بدأت خمس دول أوروبية قبل سنتين. وتصاميم الطائرة المقاتلة «تورنادو» التي تنتجها إيطاليا وبريطانيا والمانيا الغربية. ومشروع «ستيلث» ذي الحيوية التكنولوجية الخاصة، والذي يهدف الى جعل الطائرات والصواريخ غير مرئية على شاشة الرادار. إن هذا الرجل، وكما ورد في قرار الاتهام، عمل لحساب الاستخبارات السوفياتية، طوال ثلاثين عاماً. والمثير أنه لدى العودة الى ملفه الشخصي، تبين أن جهاز الاستخبارات الفيدرالية الذي أخضعه للمراقبة ولفترة طويلة، كما هي الحال بالنسبة لجميع الذين يشغلون مراكز حساسة، لم يأخذ عليه أي مأخذ. بل على العكس من ذلك أشارت الى انضباطيته المطلقة ولكن دائماً يلقي القبض على المتهم بعد فوات الأوان. فقبل انفجار

قضية «تيدغي» كانت السلطات الألمانية الغربية تحقق في اختفاء سكرتيرة تعمل في مقر قيادة الجيش في بون وتدعى «أورسولا ريختر» (٥٣ عاماً)، فيما تشير المعلومات الى تورطها في عملية تجسس لحساب المانيا الشرقية. وهذه التحقيقات جاءت في أعقاب اختفاء السكرتيرة السابقة لوزير الاقتصاد الألماني الغربي، وتدعى «سونا لوينبرغ» (٦٠ عاماً) اضافة الى شخص آخر يحمل اسم لورنز (٥٣ عاماً) وهو من العاملين أيضاً في مقر قيادة الجيش. وها أن عملية أكبر بكثير تظهر على السطح بعدما تبين ان «مارغريت هوكي» التي تعمل سكرتيرة في مكتب الرئيس الألماني هي «جاسوسة خطيرة»..

البعض يصفونهم بـ «الجراثيم الثمينة». الكن ضابطاً فرنسياً قديماً هو «لوران بترلي» لا يتورع عن الدعوة الى تقسيم المانيا الى أربع دول على الأقل، لأن تقسيمها الحالي لا يحل المشكلة، بل إنه يتيح المجال أمام الألمان كي يزرعوا الألغام في القاع حيث هم الآن: «انهم أشعلوا الحرب العالمية الثانية وهزموا. لكنهم يخططون الآن للحرب العالمية الثالثة ليهزموا ما تبقى من البشرية انتقاماً لهزيمتهم.

والواقع أن موجة هائلة من الخوف سادت الأوساط العسكرية في الغرب، حتى أن صحيفة «لاكروا» الفرنسية ألمحت الى ضرورة تحديد أسس جديدة لتداول الأسرار. والى حد الدعوة الى «تحييد» المانيا الغربية عسكرياً، بحيث لا تبقى عبارة عن صندوق بريد تنتقل عبره كل الأسرار الاستراتيجية الغربية الى الاتحاد السوفياتي. وتبعاً لما تقوله الصحف المقربة من الحزب الديمقراطي المسيحي في بون، فإن الهدف السوفياتي من زرع الجواسيس قد لا يكون جمع المعلومات فحسب، بل زعزعة البنية النفسية في المانيا الغربية، وذلك من خلال هذا النوع من «الانقلابات الباردة». وهذا ما يدفع «هيلموت كول» أن لا يكتفي بدحرجة بعض الرؤوس التي لن تكون الأخيرة بأي حال. والواقع أن قضية تيدغي أكبر من أن تعالج بإطاحة «هيلينبرويش» الذي كان رئيساً لتيدغي قبل تعيينه رئيساً للاستخبارات الفيدرالية... وبعيدا

عن ذلك، أصبح «هانس يواكيم تيدغي» بمأمن تام لكي يمضي شيخوخة ذهبية بعد «الانجازات» الهائلة التي حققها لألمانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي. والمثير أن ترتفع أصوات أوروبا تدعو الى اعتبار الجاسوسية في ألمانيا الغربية أمراً مشروعاً. فإذا ذلك يمتنع حلف الأطلسي عن «وضع حياة شعوبه بين أيدي السكرتيرات والمخمورين والقتلة». فيما يدعو البعض الآخر الى وقف الخطأ الأميركي بعسكرة ألمانيا. لكن الأوروبيين لا يفهمون ألمانيا ولا الألمان جيداً... الذين يتنفسون نصف الهواء ويرون نصف السماء ويعملون لنصف المستقبل: «اننا نرتدي تاريخاً ممزقاً، ونعيش موتاً ممزقاً» هكذا يقول الماني آخر هو «كورت ليننغر». كلام خطير يعني أن الألمان لم ينسوا جراحهم القديمة بمجرد أن قامت المباني الجديدة، وعليهم أن يدمروا العالم مرة أخرى..

هؤلاء الذين يتذكرون جيداً ساعات برلين «التي اغتصبت كنساء الأرصفة» كما يقول النازي الجديد «هربرت براكل» يملكون كل الكراهية التي تجعل منهم جواسيس الدرجة الأولى...

والمهم أن الأطلسيين يستعيدون المعلومات التي كانت في رأس تيدغي... انهم لا يستطيعون تحطيم رأسه... إذن فليعملوا على تحطيم المعلومات... ويقال بأن الصواريخ النووية قد ذابت في كؤوس النبيذ...

وفي مكان آخر من هذا الكون الواسع يشربون نخب أحد العمالقة الذي يسمى «هانس يواكيم تيدغي»..

وليس بوسعنا نحن الشرقيين، وخصوصاً أبناء دول العالم الثالث، إلا أن نشارك عن بعد في شرب نخب تيدغي الذي قام بواجب لن تنساه الانسانية أبداً الدهر..

الفهرس

٧	المخابرات الألمانية
١٧	نازية ألمانية وإحراق الرايخشتاغ
٢٥	التحالف النازي - الصهيوني من المهد إلى اللحد
٣٥	المخابرات تشعل نار الحرب العالمية الثانية
٤٣	رومل ثعلب الصحراء
٥٣	عملية كروسيدير
٦٣	الجاسوسية وصراع الأبالسة
٧١	خفايا وأسرار الحرب العالمية الثانية
٨١	ممر حلفاية وأسرار قائده الناري
٩١	دقة الجاسوسية الألمانية بين النجاح والفشل
٩٩	الوفاء الهتلري واختطاف موسوليني
١٠٩	المخابرات الألمانية وأسرار عملية القطب الشمالي
١١٩	صراع الدهاء بين رجال البحر
١٢٧	بدعة الصهاينة ومحكمة نورمبرغ
١٣٧	أينشتاين بين العبقرية والصوصية
١٤٧	الكبرياء الألماني ووثيقة الاستسلام
١٥٧	المجرم الصهيوني يحاكم المجرم النازي
١٦٩	دحرجة الرؤوس في بون

